

3

أريد لأطفالي أن يكونوا مغامرين

يسعى الفرد اللامحدود وراء المجهول، ويحبّ الغموض. وهو يحبّ التغيير، ويجربه مع كل شيء في الحياة تقريباً. كما أنّه ينظر إلى الفشل على أنه جزء من عملية التعلم. وأنّ النجاح يتحقّق بصورة طبيعية في إنجاز مشاريع الحياة، إضافة إلى تدريبه على الأشياء التي يهتم بها كثيراً.

لا شيء يدوم سوى التغيير

- الفيلسوف اليوناني هرقليطس (535-475 ق. م)

كل شيء يتغير في هذا العالم. ويعدّ هذا التغيير مكوناً أساسياً من حقيقة وجودنا على هذه الأرض كحقيقة الليل والنهار. ولذلك، سوف يتعرض كل شيء إلى التغيير. وهذا توقع تستطيع ادّعاءه بكل ثقة. فنحن، بصفقتنا مخلوقات بشرية، نظل في حالة تغيير دائم، فأجسادنا تتغير كلّ يوم، وكذلك اتجاهاتنا التي تتطور باستمرار. وربما نكون قد أقسمنا قبل خمس سنوات مضت أن شيئاً مالم يتغير، وعندما ننظر إلى الوراء، فإننا نستغرب كيف كنا نعتقد بذلك. وإن نظرنا إلى صورنا القديمة، فستبدو لنا ملابسنا غريبة الشكل. كما أنّ الأشياء التي نعدّها قطعيّة ومكتملة ومنيعة أمام التغيير، فإنّها تتغير في واقع الحال. حتى الصّخور الصّوانيّة تتحول إلى رمل مع مرور الزمن، كما تتآكل الشواطئ بفعل الحتّ والتعرية مُشكلة سواحل جديدة. أما البنايات الحديثة التي سوف تُهدم في يوم ما فقد استبدلت ببنايات حديثة آنذاك. وحتى الأشياء التي دامت آلاف السنين، كالأهرامات، فإنّها تتغيّر أيضاً. وبناء على ما تقدم، عليك التقاط هذه الرؤية البسيطة إذا كنت تريد أن تكون شخصاً غير محدود، وإذا كنت ترغب في تنشئة أطفال على هذه الصّفة، فكل شيء تحسّه وتفكر فيه وتراه، وتلمسه يتغير باستمرار.

والسؤال المهم الذي تطرحه على نفسك ليس إن كنت تحبّ التغيير أم لا؛ فحبّك أو كرهك له لا يغيّران من الأمر شيئاً، وسوف يستمر التغيير بصرف النظر عن رأيك فيه.

لكن القضايا المهمة هي كيفية تعلّم أطفالك التعامل مع هذه الظاهرة التي ندعوها التغيير، والكيفية التي تتعامل معها في حياتك اليومية. وهذه مسألة مهمة؛ لأنّ الطّفل الذي يكبر وهو يتقبل التغيير منهج حياة، ويرحب به جزءاً من كينونته البشرية، سوف يكون على الطريق صوب حياة رائعة.

ومن ناحية أخرى، فإنّ الطّفل الذي يخاف التغيير، ويتجنب الخبرات الجديدة، ويخشى الفشل، ويظلّ، نتيجةً لذلك، لصيقاً بالمألوف وبالطريق الآمن – سوف يكون مصيره حياة خاملة؛ إذ يبدو أنّ الأشخاص التعساء هم أكثر من يخشى التغيير. وإذا ما ربّيت أطفالك على تجنّب التغيير أو الخوف منه، فأنت في الواقع تربّيتهم ليكونوا عصابيين تماماً، عاجزين عن التعامل مع هذا العالم الذي لا يتوقف عن التغيير، وبذلك تدفعهم إلى حياة خاملة. ويتضمن تعليم أطفالك تقبّل التغيير اتّباع اتجاهات وسلوكات جديدة في تعاملك اليومي معهم، وأنتم تسيرون نحو المجهول. كما يستدعي إعادة النظر في تفكيرك وتصرفاتك المترمة، والتدقيق في المخاطر التي تنطوي عليها تنشئة الأطفال على تقبّل التغيير بدل الخوف منه.

تعلّم تقبّل المجهول

في صغرنا، غالباً ما كنا ننظر إلى أنفسنا وإلى العالم من خلال عيني إنسان تعلّم ليفكر بطريقة غير صحيحة. فقد أردنا أن نكون أقوياء، إلّا أننا كنا ضعفاء في نظر أنفسنا. كانت لدينا أحلام عظيمة بأن نصبح علماء أو رياضيين مشهورين، ومع ذلك كنا نعتقد أننا لا نملك أيّ موهبة. وأردنا أن نكون ناجحين، إلّا أننا كنا ننظر إلى أنفسنا طلاباً عاديين، بل فاشلين. ولذلك، ومن أجل تحقيق توافق دقيق بين الرؤية الداخلية والواقع الخارجي، من الضروري مساعدة الأطفال على النظر إلى أنفسهم كما لو كانوا يسيطرون على حياتهم بالكامل. ويجب عليهم تعلّم أنّ المخاوف والشكوك قيود تفرضها على أنفسنا بأنفسنا، وإلا فإنهم سوف يظلّون يلقون اللوم دائماً على ظروف خارجية لتبرير عجزهم عن تحقيق أحلامهم الداخلية في التفوّق. وغالباً ما يخاف الشباب اليافعين من عظمتهم وتفوّقهم. ففي حين يرغبون أن يصبحوا أبطالاً، ولو في الخيال، إلّا أنّ الصّورة الدّاتية لعجزهم ومحدودية قدراتهم تحول بينهم وبين الإنجازات الحقيقية.

إنَّ من الضروري جدًّا للآباء مساعدة الأطفال على استكشاف احتمالات أن يصبحوا عظماء؛ لأنَّ الطفل عاجز عن استجماع قدراته لتحقيق التفوُّق إذا تسلَّط عليه الخوف من المجهول، أو الأفكار، أو المغامرات، أو الخبرات الجديدة، أو الناس.

ويقضي الآباء وقتًا طويلاً في تدريب الأطفال على تجنُّب المجهول، من خلال تشجيعهم على تبني وجهة نظر الراشدين دون تردد. ونحن نعلِّمهم أن يكونوا مطيعين، وعدم تحدي شخصياتهم التسلطية، وأن عليهم تناول نوع الطعام ذاته، ومشاهدة برامج التلفاز نفسها، واعتناق الأفكار الدينية والسياسية، ووجهة نظرنا المتعصبة عنها. وعندما لا توجد لدى الأطفال من أيِّ عمر تلك الرغبة والاستعداد لتجربة أشياء جديدة، ومقابلة أشخاص آخرين، واستكشاف أفكار غير مألوفة، أو التجوال في مكان مجهول، فهذا يعني في الواقع تثبيطاً لقدرة اتهم وتفوقهم، وحاجزاً منيعاً أمامهم ليصبحوا أفراداً غير محدودين لا يعانون من الاضطرابات النفسيّة.

في إحدى المرات، قالت صديقة لي، اسمها ماليا، إنها قلقة لأنَّ ابنتها ذات السنوات السبع تخاف الاختلاط بالأطفال الآخرين، وأرادت أن تعرف السبيل إلى تشجيعها كي تصبح جسورة واجتماعية بشكل أفضل. واتضح لي بعد أن تحدثت إليها مدة ساعة أنها ربّت ابنتها لتجسد أكثر شيء تكرهه في ذاتها. لقد تعودت هذه السيدة ألا تعصي أمر الأبها أو جدها أو أن تناقشهما. ألعاب القوى غير مناسبة لطفلة صغيرة، في حين أنَّ ما يناسبها هو الأنشطة النسائية التي تتركز في عمل أشياء معينة كالخياطة، وترتيب الأزهار، والطبخ. وأنَّ الاهتمام بزوجها يجب أن يكون هدفها في الحياة. وتبيّن لي من الحديث أنَّ الأم كانت تخاف من أشياء كثيرة في صغرها، مثل الظلام واللون الأسود، والأولاد، والاتساخ، والصوت العالي، وما شابه. وعندما بلغت سن الرشد، كان صوتها هادئاً وناعماً جدًّا.

عندما انتهت الأم من سرد المشكلة، قلت لها إنها تكرر الموقف ذاته مع ابنتها، وتغرس فيها ردّات الفعل ذاتها التي كانت لديها تجاه العالم الموجود في داخلها. وقلت لها، كذلك، إنها إذا أرادت أن ترى ابنتها أكثر إيجابية وثقة بالنفس، فعليها أن تحطّم حلقة التفكير التي طوّقتها من قبل. ولتحقيق هذه الغاية، شجعتها لتسمح لابنتها بتجربة أشياء جديدة، وأن تركّب حلقة كرة سلة في فناء البيت، وأن تشتتر كافي عمل حفرة للعمود، وملئها بالأسمت، وإكمال هذه العملية معاً. واقترحت عليها كذلك أن تعدّ لابنتها برنامجاً عملياً متخيلاً، كأن

تذهب في رحلة دون خارطة، واستكشاف أمكنة وتجمعات جديدة، وأن تناقش أباهما حول أشياء لا توافق عليها؛ أي أن تصبح، بصورة عامة، إنسانة ذات استقلالية يُسمع صوتها، وأن تفكر بطرق جديدة ومجازفة بدلا من أن تظل تلك الطفلة الصغيرة الخجولة التي تخشى من كل شيء، لا تعرف عنه شيئا، مما يجعلها، أخيرا، تتجنب الأنشطة الجديدة.

بعد مرور أشهر قليلة، بدأت الأم تلمس تغيراً مذهلاً في منحى الطفلة من الحياة. ووقفت مرة مذهولة وهي ترى ابنتها تقول لأبيها المتسلط: أنا لا أخشى بعد الآن أن أسابق الأولاد في المدرسة، حتى وإن كنت تعتقد بأنني يجب ألا أفعل ذلك.

وبدأت الطفلة في تجربة أشياء لم تعتدها من قبل؛ لقد أعدت وجبة للعائلة في إحدى الليالي، وهو أمر كان والدها يعتقد أن باستحالة أن تقوم به طفلة في مثل عمرها. كما أصبح لها صديقان جديدتان في الحي الذي تقطنه، فقد ذهبت إليهما مباشرة وقدمت نفسها لهما، وهو أمر كان يخيفها كثيراً قبل أشهر قليلة فقط. وعندما أصبح عمرها 13 عاماً، تحولت إلى فتاة شجاعة وواثقة من نفسها، بعدما شجعتها أمها على أن تسعى وراء المجهول لا الخوف منه، بشرط أن تكون حذرة بتعقل، وأن تتجنب خوض معترك الحياة وعلى عينيها غشاوة، وأن تسعى نحو المغامرات الجديدة الرائعة التي تكون بانتظار كل من يرحب بالمجهول، بدل الخوف منه.

ولو أنك توقفت للحظة وفكرت، فإنك سوف تدرك أن أي شخص يخشى المجهول قد فرض على نفسه أكبر عائق لإدراك كنه الحياة وتقديرها؛ فإذا ما فعلت الأشياء المألوفة لك فقط، فمن المؤكد أنك سوف تظل كما أنت طوال حياتك. إن الشخص الذي اخترع العجلة، فعل ذلك لأنه آمن بتجربة أشياء جديدة بدلا من البقاء ملتصقاً بالمألوف. ويشارك المخترعون جميعهم في استعدادهم لاقتحام ميادين جديدة غير مطروقة. وبالمثل، فإن الشخص الذي سوف يكتشف دواءً للسرطان في يوم ما، هو شخص مستعد لمواجهة المجهول لا الهروب منه. وأنت بصفتك أباً، راجع أولاً اتجاهاتك وسلوكاتك بخصوص المجهول. فهل ستجرب أنشطة جديدة أم أنك ستظل أسيراً للمألوف؟ فإذا كنت تهرب من المجهول، فمن المحتمل جداً أنك سوف تشجع أطفالك ليسلكوا الطريق ذاتها في الحياة، ومن ثم يصبحون مثلك. لذا، عليك أن تبحث عن الأشياء التي تقولها لأطفالك، وتشجعهم على استكشاف المجهول.

وأنت تقرأ هذا الفصل لتصل إلى بعض الطرق المحددة لمساعدة أطفالك في تقبل التغيير والمجهول، لا الخوف منهما، أسأل نفسك السؤال التالي: كيف لي أن أعرف متى يكون الشيء حيًّا؟

والجواب عن هذا السؤال هو: عندما ينمو الشيء فإنه يكون حيًّا. فالنبته التي تجف تكون قد ماتت طبيعيًّا لأنها توقفت عن النمو. والشيء ذاته ينطبق على البشر، فإذا توقفوا عن النمو، فإنهم قد بدؤوا يجفون جسديًّا ووجدانيًّا وروحيًّا. وإذا كان الأطفال يخشون المجهول، فهذا يعني أنهم قد توقفوا عن النمو، مما يشير إلى أنهم سيظلون على ما هم عليه تمامًا. ولذلك، فإنَّ النموَّ يعني التغيير، والتغيير يعني تجربة نفسك في رحاب جديدة، مع شعور داخلي قوي بالإثارة لا بالخوف. وهذا ما يجب أن يكون عليه هدفنا عند تربية أطفالنا؛ أي مساعدتهم على التحوُّل من الشعور بالخوف من المجهول إلى تفكير يرحب بحذر عقلائيٍّ، ولكن مع حماس لا يخبو – بكل شيء يشير اهتماماً في داخلهم. ولذلك، بإمكانك أن تساعد أطفالك على الترحيب بالتغيير بدلاً من الخوف منه، سواء الانضمام إلى مخيم أطفال جديد، أو تجربة إعداد وجبة جديدة، أو محاولة الانضمام إلى فريق كرة قدم، أو الالتحاق بدورة عن الإحصاء أو الوجودية. وفي الحقيقة، فإنَّ الخوف من المجهول غالباً ما يبنى على منظور أكثر تدميراً في عقول الصغار الذين لم يعلّمهم أحد ليكونوا أشخاصاً بلا حدود، وهو: الخوف من الفشل. وهذا المنظور أيضاً، يجب أن يسلط عليه الآباء في هذا العالم ضوءاً جديداً، لكشفه ومواجهته.

كيف تكون عقلائيًّا تجاه الفشل؟

يقول الزوائي الأمريكي الأرمني الأصل ويليام سارويان: لقد أصبح الناس الصالحون صالحين لأنهم تعلّموا الحكمة من الفشل. ولا شك أن هذا القول لا يفاجئك إذا كنت قد فكرت في الكيفية التي نتعلم بها، وهي اكتساب المعرفة من الفشل. وفي الحقيقة أننا نتعلم القليل من النجاح، بل إنه يجعلنا مستريحين قانعين. فنحن عندما نجد شيئاً يمكن القيام به بسهولة، فمن الطبيعي أن نستمر فيه، وكلما نجحنا فيه أكثر، قلَّ احتمال تغييرنا، وبالتالي نمونا. وعليه، يمكن القول بأن لا شيء يفشل مثل النجاح، وهذا يتطلب منك، إن كنت حريصاً على أن يجرب أطفالك فرحة النجاح، أن تشجعهم على تعلّم كيف يفشلون – وأن يفشلوا كثيراً، وهذا هو درس الحياة البسيط.

لكن الفارق المهم هنا هو الاختلاف بين الفشل في المهمة وفي أن يكون الإنسان نفسه فاشلاً؛ لأنّ كل واحد منا يحمل في ذاته قيمة وكرامة بمقتضى وجوده حيّاً. ولا يوجد من يضمن لهذا الإنسان أن يمرّ بتجربة فشل في حياته أبداً، وكلما زادت رغبته بتجربة بهجة النجاح في حياته، زادت أمامه فرص التعلم من الفشل. ولأننا نتعلم من فشلنا وأخطائنا، في حين نكون قانعين من خلال نجاحاتنا، فعلينا أن نبدأ بتعليم أطفالنا أن الفشل ليس مقبولا فحسب، ولكنه متطلّب حتمي إذا ما أرادوا أن يصبحوا أشخاصاً بلا حدود. وربما يكون هذا الإدراك الخاص بالفشل هو عملياً ما يدفع المخترعين العظام جميعهم على متابعة أعمالهم بما يشبه الهوس. ومثال ذلك توماس أديسون مخترع المصباح الكهربائي، الذي لاحق المجهول طوال حياته تقريباً، يقول: دلّني على إنسان قانع بالكامل، عندها سأدلّك على الفشل. ولهذا، عليك انتزاع الخوف من المحاولة خشية الفشل، وساعد الأطفال على فهم الفارق بين الفشل في مهمة وفي أن يكون الإنسان نفسه فاشلاً. ولتحقيق ذلك، يجب أن نعيد التّظر في هوسنا بالتحصيل والإنجاز. وعلينا أن نتذكر بأنّ الفرد اللا محدود ليس ذلك الفرد الذي لم يفشل مطلقاً، بل هو الذي ينفذ عن نفسه الغبار بعد السقوط، ويتعلم مكامن العقبات الموجودة في طريقة لتجنبها. أما الإنسان الذي يهرب من الفشل، فسوف يرتمي في الطريق ويئن ويتأوه، أو، ربما الأسوأ من هذا، أن لا يسلك الطريق أبداً، ويكتفي باتخاذ مسار آمن ومعروف طوال حياته متجنباً الفشل والإنجاز الشّخصي في آن واحد.

إنّ الشباب الذين يخشون الفشل هم المصابون بهوس بالتحصيل عادة، وهم يميلون إلى تقويم قيمتهم الشّخصية ونجاحهم وفق شروط الإنجاز الخارجية. ولذلك، يبدأ الأطفال في عمر مبكر يؤمنون بأهمية النجوم الذهبية في كلّ شيء يقومون به، وتصبح العلامات عندهم أهم حدث في تعلّمهم. وهكذا، فإنّ الطالب الذي يسعى وراء تحصيل العلامات العالية، سوف يتجنب أي شيء قد يخفض هذه العلامات. ويصبح شعار الطلاب الصّغار في السنّ الساعين وراء مقاييس النجاح الخارجية: اختر المسافات السهلة، الجأ إلى الغشّ في الاختبارات، وابتعد عن المعلمين الجادّين. أو أنهم قد يسعون جاهدين للحصول على علامة مرتفعة من معلم صارم يسعى إلى الكمال، لدرجة أنهم يستنزفون أنفسهم بالبقاء مستيقظين حتى ساعة متأخرة من الليل في إتمام مشاريع، وإعداد تقارير مصممة إلى إرضاء هذا المعلم، وليس من أجل عملية التعليم لذاتها.

ومهما كان ما يقومون به، فإنهم يعتقدون أن عليهم عدم الفشل في أي شيء. ولذلك، يصبح الفوز باللعبة أكثر أهمية من اللياقة البدنية والمهارة الرياضية. وبما أن الجائزة هي أهم شيء بالنسبة إليهم، فإنهم يبدلون قصارى جهدهم من أجل الانضمام إلى الفريق، وهزيمة الخصم، أو احتلال المركز الأول. ولهذا، يصبح دخول الكلية المرموقة أكثر أهمية من اكتساب المعرفة، وهزيمة الخصم أكثر جدوى من تعلّم مساعدة بعضنا بعضاً على هذه الأرض. ولأنهم يؤمنون بأن الإنسان لا شيء يُذكر إذا لم يكن في المركز الأول، فإنهم يفعلون ما يستطيعون للحصول على اعتراف الآخرين واستحسانهم. وهم والحالة هذه، لا يعيرون أي اهتمام للمكافآت الداخلية التي يرون أن لا معنى لها، وإنما ما يهمهم هو: النقود، والقوة، والسيطرة، والميداليات، والجوائز.

إنّ اللهاث وراء المعايير الخارجية للنجاح هو السبب الذي يعزى إليه تزايد عدد الشباب الذين يتناولون كميات كبيرة من المهدئات أكثر من أي جيل آخر في تاريخ الولايات المتحدة. وهذا ما يفسر ارتفاع معدلات الانتحار إلى مستويات مذهلة حتى بين الأطفال الصغار من عمر 7 - 8 سنوات. ويمكن القول إنّ الأطفال الصغار الذين يقدّمون قيمتهم على أساس المقاييس الخارجية، والذين تجنبوا الفشل طوال حياتهم، يصبحون عاجزين عن التعامل السويّ مع متطلبات الحياة الواقعيّة عندما يكبرون. فأنّت عندما تعلّم الأطفال أنّ المعايير الخارجية للنجاح هي أهم عنصر في حياة الفرد، فإنّك، في الحقيقة، تعلّمهم النّظر إلى نجاحهم خارج أنفسهم. إنك تطلب إليهم أن يبحثوا عن السّعادة في الأشياء، بدلاً من حمل السّعادة معهم، وإضافتها على أيّ مشروع إنساني. يمكن لليافع اللامحدود أن يجد سعادة في إزالة العشب من الحديقة، أو قراءة كتاب، أو لعبة التقاط الكرة مع لاعب كرة سلة سابق، أو إبعاد علبة معدنية فارغة عن الطريق. إنّ اليافع ذا الحدود الكثيرة، الذي تعلّم مطاردة رموز النجاح ومقاييسه كعضو الاحتياط في فريق الحيّ المنظم الذي يخوض مباراة، ويبقى كذلك إلى أن تصبح النتيجة غير متكافئة لصالحهم. عندئذٍ، ربما يسمح له بالاشتراك في اللعبة لأنّ النتائج قد تحددت ومالت لصالح فريقهم. ولم يسمح له باللعبة في بداية المباراة؛ لأنّ المدرب يعتقد بأنّ الفوز بالمباراة أكثر أهمية من تعلّم كيفية اللعب والاستمتاع بالإثارة الناجمة عن المشاركة. لكن الآباء والمدرّبين غالباً ما يقولون للصغار دائماً: احذروا الفشل، متناسين أنّ الفائزين جميعهم هم أشخاص كافحوا، وفشلوا مراراً،

وتعلموا كيفية الاستفادة من أخطائهم، ثم عملوا بجد ليحسنوا أداءهم من خلال عدم مقارنة أنفسهم بالآخرين، وإنما كانوا مدفوعين بحوافزهم الداخلية.

وهكذا، فكلما زدنا من تعليم أطفالنا التركيز على الإنجاز على حساب الرضا الداخلي، علّمناهم أكثر أن يسلكوا الطريق السهل وتجنب الفشل. ومع ذلك، فعندما تلقى نظرة سريعة على تميّز أيّ إنسان وتفوقه في أيّ مهنة، فإننا في الحقيقة ننظر إلى أشخاص فشلوا في العديد من المحاولات، ولكنهم تعلّموا شيئاً جديداً في كلّ مرة. وعندما سأل أحد الصحفيين توماس أديسون عن شعوره بعدما فشل 25 ألف مرة في محاولاته لصنع بطارية بسيطة، كان رده تعبيراً عن عظمة الأشخاص اللامحدودين: لا أدري لمّ تسمى ذلك فشلاً؟ فأنا اليوم أعرف 25 ألف طريقة لا تؤدي إلى صنع البطارية.

ربما عليك أن تتعلم من الآباء سيئي الحظ الذين شاهدوا أبناءهم ينهارون أمام المنافسات القويّة فلجئوا إلى تعاطي المخدرات، أو حتى محاولة الانتحار، لأنهم لم يحققوا معايير النجاح الخارجية. وربما تحب أن تعرف أن كثيراً من الأطفال يرون أنفسهم فاشلين لأنهم يعتقدون أن الفشل مرض، وعندما يصابون به، فإنهم يستسلمون للعناصر السامة لهذا المرض. فإذا كنا سيئين لأننا نفشل فهذا يعني أننا سيئون كلنا. والحقيقة هي أنه لا يوجد إنسان يستطيع الفوز دائماً، حتى أكثرنا نبوغاً واجتهاداً.

لقد تحدثت إلى الآباء الذين يؤمنون بذلك الكلام الحماسي عن الفوز، واحتلال المركز الأول، والضغط على أطفالهم في بدايات أعمارهم. وذكر لي أحدهم إن ابنته قالت عندما عادت إلى البيت من المدرسة: عليّ أن أحصل على علامات كاملة في المدرسة، وإلا فلن التحق بالجامعة المناسبة. كانت تلك الطفلة ذات السنوات السبع في الصف الثاني، وكان من المفترض على طفلة في مثل سنّها أن تفرح وتضحك وتستمتع بالحياة، وتجرب كل شيء بصادفها، وأن تكون سعيدة، لأن تشعر بالخوف من عدم قبولها في الجامعة التي تريد. كان هذا الأب نفسه، الذي كان يتباهي بجميع الأطفال الذين تفوقوا في حياتهم بناءً على المقاييس الخارجية، يعاني ضغط الدم المرتفع، وكذلك الإدمان على الكحول، إضافة إلى القلق لعدم توافر المال الكافي لديه. وهذا الأب لم يمرّ في حياته بخبرة الفشل بالمعنى الدارج، ولكنه كان، بكل تأكيد، مثالا على شخص فقد سلامه الداخلي. كان يعاني الفوضى والاضطراب، وكان يريد من أطفاله أن يحذوا حذوه. وفي الوقت الذي كان

يسعى فيه وراء النجاح بلا هوادة، نسي المعيار المهم للنجاح الحقيقي الذي وصفه الكاتب والصحفي الأمريكي كريستوفر مورلي (1890 - 1957)، بقوله: هناك نوع واحد فقط من النجاح؛ أن تعيش حياتك بطريقتك الخاصة. وفي ضوء ما تقدم، يمكننا القول: إذا علّمنا أطفالنا الجري وراء التحصيل وتجاهل الرضا الداخلي، فإننا نعلّمهم سلوك الطريق السهل، والاهتمام بآراء الآخرين والجوائز التي ينعمون بها عليهم، وعدم التفكير بالفشل. وهذا هو الداء الذي تعانيه الولايات المتحدة الأمريكية، الذي أوجزه الفيلسوف وعالم النفس الأمريكي ويليام جيمس (1842 - 1910)، بالقول: يتمثل مرضنا الوطني في عبادة النجاح وحده. وإن أردنا التخلّص من هذا الداء، فعلينا ألاّ نعدّ الفشل أمراً سيئاً؛ إنّ السبيل الوحيد لتعلّم أيّ شيء. علينا أن نتعلّم كيف نفشل، وهذا يعني أن نكون مستعدين لتجربة أيّ شيء تقريباً نودّ تجربته بناء على دوافع داخلية. وهذا يشمل أن نكون مستعدين للمخاطرة التي تعدّ المكوّن الثالث لتعلّم تقبّل التغيير بدل الخوف منه. أما المكوّن الأول فهو البحث عن المجهول، في حين يشير المكوّن الثاني إلى إدراك ضرورة الفشل.

المخاطرة

ربما تكون قد وقعت في مصيدة مافي هذه السنوات التي عشتها حتى الآن، وقلت لنفسك إنه كان يجب عليّ أن أكون أكثر حذراً. وأنت بهذا القول، كنت تبحث عن الأمان الذي يبدد كثير منا طاقتهم بحثاً عنه. إنهم يبحثون عن هذا الوهم الذي سوف يمنحهم شعوراً بالأمان طوال حياتهم. وربما تكون من الذين يعتقدون بأنك إذا ما كنت حذراً وحرصاً، وادخرت نقودك، وجمعت الكثير من الأشياء بما في ذلك البيت، والسيارة، والأثاث، والحساب البنكي، فقد ضمنت موقعاً آمناً في الحياة. ولكن هذا كلّ مجرد هراء! إنه ذاك النوع من التفكير الذي يقودك إلى حياة آمنة مأمونة العواقب، ولكنها حياة غير قانعة ولا مكتملة؛ لأنك ستظل تسعى وراء سراب يدعى الأمن حتى نهاية حياتك. وأخيراً، ستعود من هذه الرحلة خاوي الوفاض. والأمر بكل بساطة: لا وجود لشيء يُدعى الأمن الخارجي الذي لا يبحث عنه سوى الأشخاص الذين لا يحسون به.

إننا نخطئ عندما نبحث عن الأمن والأمان في الممتلكات والأشياء المادية. ومع ذلك، فإنّ مفهومنا للأمن في أمريكا حالياً غالباً ما يتذكر على صورة المال، والبيت، والوظيفة، والشهادة الجامعية، أو زوج جدير يتمتع بهذه المواصفات. ومن المؤكد أنّ كلّ هذه

الأشياء الخارجية عاجزة عن توفير الأمن لأيّ إنسان؛ لأنّ الأمن الخارجيّ مجرد خرافة؛ فهذه الأشياء تظهر وتختفي اعتماداً على عدد من المتغيرات التي لا يتحكم فيها ولا يسيطر عليها أيّ منا أبداً. يضاف إلى ذلك، أنه حتى لو امتلكت هذه الأشياء بوفرة في حياتك، واعتقدت تماماً أنها لن تختفي أبداً، فأنت لا تملك من الأمن أكثر مما يملكه أي متسوّل معدم في الشارع.

إذن، لا وجود للأمن الخارجي أبداً، مثلما لم يوجد مطلقاً من قبل، وسوف لن يوجد في مجتمع دائم التغيّر. إلّا أنّ هناك نوعاً مختلفاً من الأمن الذي إذا حصلت عليه، وعلمت أطفالك الحصول عليه كذلك، فسوف يقضي على الأمن الخارجي المزعوم إلى الأبد. إنّ ما نريده لأطفالنا تعلّمه هو الأمن الداخلي، والثقة بالنفس في مواجهة أيّ ظرف، والاستعداد للإيمان بالنفس، ومعرفة أنّ الأمن الحقيقي الوحيد يكمن في داخلنا. ويُنسب إلى رجل الأعمال الأمريكي هنري فورد الذي جمع في حياته ثروة هائلة، القول: إذا كان المال هو هدفك للاستقلال فلن تناله أبداً. إنّ الأمن الحقيقي الوحيد الذي يمكن أن يحظى به الإنسان في هذه الحياة هو رصيد من المعرفة والخبرة والقدرة. وعندما تكون هذه الفلسفة أسلوبك في الحياة، ثم تعلّم أطفالك الفرق بين هذين المنحيين لتحقيق الأمن، فأنت عملياً تشجعهم ليصبحوا مغامرين بدل أن يكونوا شغوفين بوهم العيش في أمن وأمان.

إنّ الأطفال الذين يؤمنون بفكرة الأمن الداخلي يبحثون في داخلهم عن أجوبة لما سيكونون عليه في الحياة بدلا من البحث عن هذه الإجابات في الأشياء. فهم، على سبيل المثال، لن يخافوا الاشتراك بمخيم صيفي جديد؛ لأنهم يؤمنون بقدرتهم على مواجهة المشكلات المحتملة. وهم يعرفون أنّ الحل لمشكلة الحنين إلى البيت لا يكمن في الطلب إلى آبائهم أن يحلوا هذه المشكلة لهم لمعرفة أنهم أن باستطاعتهم الابتعاد عن البيت؛ لأنهم يدركون كيفية الاعتماد على النفس. كما سيعرفون أن لديهم القدرة لمعرفة ما عليهم فعله إذا ما استقوى عليهم الآخرون الأكبر سنّاً منهم. سوف يبحثون عن الحل في داخلهم لا البحث عنه خارج أنفسهم. ومن شأن هذا النوع من التفكير إذا ما دعمناه مدى الحياة، أن يشجع على امتلاك النوع الوحيد من الأمن، ألا وهو الثقة الدائمة بالنفس في حل المشكلات. وبالمقابل، فإننا إذا جعلنا الطفل يؤمن بالأمن الخارجي الزائف، فسوف يحاول أن يشق طريقه للخروج من المشكلات بنفسه، أو الاعتماد على والديه لحلها له. وهكذا، فإنّ

الاعتماد على الذات، عندما يتعزز داخل الطفل مدى الحياة، يشجع على المخاطرة لا الخوف منها. كما يوجد نوع من الأمان الداخلي الذي يقول للطفل عملياً: إذا كنتُ أريد الوصول لما أودُّ أن أكون عليه في الحياة، فإنه لا يمكنني الاعتماد على أحد سوى نفسي لتحقيق ما أصبو إليه؛ لأنني الشخص الوحيد الذي أثق بأنه سوف يكون معي في الأوقات جميعها، عندما تبرز هذه المشكلات في حياتي. وإذا كنت أنا هو كل ما أملك، فإنني أريد التأكيد أنّ باستطاعتي الاعتماد على نفسي في أيّ وقت. وهذا باختصار هو جوهر معنى أن يصبح أحدنا مغامراً.

وعند مساعدتنا الأطفال كي يصبحوا مغامرين، علينا التأكيد من أنهم يراعون قدرًا معقولاً من الحذر؛ لأنّ المغامرة يجب أن لا تتضمن قراراً بالحياة أو الموت، ولكنها تشمل أن يتبع الإنسان نوازعه الداخلية، وأن لا يصبح فرداً في قطع. وكما ذكرنا سابقاً، فإنّ نقيض الشجاعة ليس الجبن، بل التبعيّة. وما أعنيه تحديداً عن الجبن هنا هو أن يكون الإنسان انقيادياً، وأن يفعل ما يقوله الآخرون. ولذلك، فإنّ الطفل الذي يهتم كثيراً بالتطابق والانسجام مع الآخرين، وعمل ما يقال له سوف لن يصبح مغامراً في يوم من الأيام، كما أنه سوف لن يعتبر نفسه شخصاً لا محدوداً. وهنا، فإنّني أتحدث عن تعلّم تجنب الطريق السهل، وتجربة أشياء قد تبدو صعبة دون الخوف مما قد يفكر فيه الآخرون، وأن يدافع الإنسان عما يؤمن به، بدلاً من الارتعاش خوفاً من احتمال استهزاء الآخرين أو تطاول أحد عليه.

وسوف تجد في نهاية هذا الفصل بعض التمارين المحددة التي يمكن استخدامها مع الأطفال لمساعدتهم على أن يصبحوا مغامرين عقلياً. وقد اعتدت شخصياً على تشجيع ابنتي الكبرى تريسي منذ سنواتها الأولى وطوال سنوات المراهقة على البحث عن الإجابات في داخلها، وعدم الخشية من المغامرة أو مواجهة التغيير. وهذه أمثلة قليلة من حياتها، وهي في العامين من عمرها:

تريسي، باكية: بابا، بيلي لا يحبني، لقد قال إنه يكرهني.

الأب: ما قيمة ما يفكر به بيلي! أنت، هل تحبين نفسك؟

تريسي: طبعاً أنا أحب نفسي. لم لا؟

الأب: لا يوجد سبب يجعلك لا تحبين نفسك حتى لو كان يبلى لا يحبك، فأنت تظلين رائعة إذا ما فكرت بنفسك هكذا.

يسدأ وعي الطفل بأن عليه عدم الانزعاج إن لم يحبه شخص آخر، وأن عليه عدم السماح لرأي الآخرين بالسيطرة عليه، عندما يبدأ الطفل بالكلام لأول مرة، ويجب تعزيز هذا الوعي طوال حياته.

ولذلك، فإنّ المحادثة الواردة أعلاه مع طفلة عمرها سنتان تعدّ بناءة أكثر من قولك لطفلك: حسناً، ما الذي فعلته إلى يبلى؟ لنرَ فيما إذا كنا نستطيع منعه من أن يغضب منك. أو: يبلى ولد سيئ، وأنا أحبك، وهذا ما يهمك حقاً.

تريسي في عمر 8 سنوات

تريسي: أنا أخاف من الانتقال إلى الحيّ الجديد، فأصدقائي جميعهم موجودون هنا. ماذا لو أنني لم أحبّ المكان الجديد؟ أو: ماذا لو لم يكن عندي أصدقاء جدد؟

الأب: هل كانت لديك مشكلة في تكوين صداقات في السابق؟

تريسي: كلا، ولكننا نتقل إلى مكان جديد بالكامل.

الأب: لمَ تعتقدين أنك جيدة في تكوين صداقات؟

تريسي: أعتقد أنّ هذا يُعزى إلى أنني أفعل ذلك بكل بساطة دون أدنى قلق.

الأب: تماماً، أنت تكسبين أصدقاء لأنك يجب أن تتجرّئي على التّعرف إلى شخص جديد، وأنت تفعلين ذلك. وعندما نصل إلى الحيّ الجديد، فعلى الأرجح أنك سوف تفعلين الشيء ذاته مرة أخرى.

لقد كانت هذه أمثلة على حوارات موجزة، ولكنها مع ذلك تعزز إيمان الطفلة بأنها تمتلك قوة في داخلها. فإذا فكرت في مهاراتها وقدراتها، وقامت بمجازفات بسيطة وقليلة، فإنها سوف تحصل على ما تريد، وسوف تتوقف عن التفكير من منظور كارثي.

شخصيًا، كنت أشجع تريسبي على المخاطرة في سنوات المراهقة. وعندما فكرت في الترشح لمنصب نائب رئيس الصف بدت لي متوترة، فتحدثت إليها عن أسوأ شيء يمكن أن يحدث لو أنها ترشحت وخسرت. وبعد أن فكرت في ما ذكرته لها، قالت: أعتقد أن أسوأ شيء يمكن أن يحدث هو أنني لن أكون نائب رئيس. وبما أنني لست نائب رئيس الآن، فإنني أشعر أنني على ما يرام، أعتقد أنني سوف أجرب ذلك. ترشحت تريسبي وخسرت، ولكن عندما تناقشنا في الأمر، كانت معنوياتها عالية. وقد ذكرت أنها آن هناك 500 طالب وطالبة في صفها لم يترشح سوى عدد قليل لهذا المنصب. وهؤلاء الأشخاص الستة أو السبعة هم الذين كانوا ينظرون إلى أنفسهم على أنهم قادة، وكانت لديهم الثقة لتقبل مخاطرة عدم الفوز. كما قلت لها إن الطريقة التي ننظر فيها إلى أنفسنا هي التي سوف تحدد في النهاية ما إذا كنا قادة أو تابعين في هذه الحياة، وإن عليها الشعور بالفخر لأنها نظرت إلى نفسها كقائدة.

إن إقدامك على المخاطرة، ومحاولة تجربة شيء ما، وأن تكوني من القلة القليلة — يشير إلى الكثير عنك أكثر مما يشير إليه فوزك في الانتخابات أو خسارتك لها. ومع أننا قد لا نتذكر من كانوا في المركز الثاني في أي انتخابات، ولكن الفائزين الذين جاءوا في المركز الأول جميعهم كان يقابلهم كثيرون ممن جاؤوا في المركز الثاني، إلا أن الذين يشاركون يكونون متقدمين كثيرًا عن الذين يتقاعسون ويقولون لأنفسهم: لا يمكنني الفوز بأي شيء أبدًا، ولذلك يجب عدم التفكير حتى بمجرد الترشح.

وخلاصة القول، إن تعلم تقبل التغيير بدل الخوف منه يعني أن نعتاد المجهول، وأن نتقبل الفشل كأحد سنن الحياة، وأن نقدم على المخاطرة كل يوم. وأخيرًا، أن نوجد صورة مبنية على خيال إبداعي يسمح لأي شخص صغير في السن رؤية نفسه في صورة لا محدودة. وهكذا، فإن المجازفات جميعها التي يقدم عليها الأطفال، تنطلق من استعدادهم لرؤية أنفسهم بطرق أكثر حداثة وإيجابية. ومن أجل تقبل التغيير والتربح به، يجب أن يحصل الأطفال على الإذن ليتخيلوا أنفسهم صورًا للعظمة والتفوق.

الخيال الإبداعي

غالبًا ما يخشى الصغار عملية التغيير لأن أحدًا لم يشجعهم على اكتساب خيال إبداعي إيجابي حول ما يمكن أن يحمله لهم هذا التغيير. ولذلك، علينا أن نكون حذرين لتجنب

كبت خيال الصغار مهما كانت أعمارهم. ومن المعروف أنَّ الأطفال الصغار يستمتعون برواية الحكايات الخيالية حول ما يمكن أن يحدث لهم في موقف معين. وهذا يتطلب منا أن نشجع هذا النوع من التصوير الداخلي لأنَّ الطفل الذي نشجعه على امتلاك خيال إبداعي لن يخاف من التغيير بالقدر الذي يخافه طفل حُرِّم من امتلاك مثل هذا الخيال. وعند تخزين الصور في الذاكرة، علينا أن نتذكر بأنَّ الأطفال لا يميزون بين الوهم والحقيقة، ثم لن يستطيع العقل بعد مدة تمييز الصورة من الواقع. وخلاصة الأمر، كلما كانت صور الأطفال عن أنفسهم أكثر إيجابية، زاد احتمال أن يكونوا قادرين عملياً على التعامل مع أيِّ موقف في الحياة.

وباستطاعتك أن تساعد الأطفال على أن يصبحوا فاعلين أكثر في التعامل مع الخوف من المجهول، وال فشل، والإقدام على المخاطرة، من خلال تشجيعهم على الحديث عن الاحتمالات جميعها التي قد تحدث نتيجة للتغيير. وسوف تكتشف أنَّ كثيراً من صورهم كانت إيجابية. وعندها، يصبح تعزيزها مسؤوليتك الرئيسة لمساعدتهم على أن يصبحوا أفراداً غير محدودين.

مثلاً، إنَّ أيَّ طفل ينتقل من مدرسة متوسطة إلى أخرى ثانوية سوف يدخل منطقة خارجية غريبة عنه للمرة الأولى. وإذا طلبت إليه وصفها، فمن المحتمل أنك سوف تسمع خليطاً من الأفكار المخيفة والأفكار الإيجابية جداً. فعندما طلب هذا الوصف من لاري، البالغ من العمر 13 عاماً، والذي سيذهب إلى المدرسة الثانوية في العام الدراسي القادم، فإنَّه أعطى الصور التالية (لقد أدخلت المعززات الإيجابية للتصور الإبداعي من الأب أيضاً):

الأب

لاري

تصور نفسك تشق طريقك بنفسك، أو
تسأل أحداً عن الاتجاهات، تماماً مثلما
أفعل عندما لا أهتدي إلى عنوان ما وأنا أقود
السيارة.

قد أضيع؛ فالمكان واسع جداً.

قد لا يسعفني الوقت على التَّنَقُّل بين
الصفوف.
ما رأيك في أن تقوم بتجربة قبل بداية
الدروس؟ ثم: ما المشكلة الكبيرة في
تأخُّرك؟

لن أعرف أحداً في المدرسة.
تصور نفسك بين مجموعة كبيرة من
الأصدقاء، وربما تجعل هذا الخيال
حقيقة.

لن يعاملني أحد بعد الآن كما لو كنت طفلاً.
أنا متأكد من ذلك.
يمكنك أن تتصور نفسك شخصاً يمتلك
أخيراً مسؤولية نفسه طوال اليوم، بدلاً من
الوقوف في صفّ، وتفعل في كلّ دقيقة ما
يُملَى عليك. لا بد وأن يكون شعورك رائعاً.

الأب

لاري

أستطيع أيضاً أن أختار المقرّر بنفسي.
سوف يكون عليك أن تتخذ لو حدك كثيراً
من القرارات المهمة في المدرسة الثانوية.
ربما أستطيع في سنتين أن أقود السيارة بعد
تخيّل نفسك وراء مقود السيارة وأنت
أن أحصل على رخصة القيادة. تذهب إلى السيارة. يالها من فكرة رائعة.

أعتقد الآن أنك قد تصورت المشهد. لقد سمح للابن أن يفكر إيجابياً بخيار إبداعي، مع
إعطائه تعزيزاً إيجابياً طوال الوقت، وهذا ما سيساعده على تغيير اتجاهه. ويمكن استخدام
هذا النوع من الحوار نفسه في التعامل مع طفل روضة يغادر البيت للمرة الأولى، ومع
طالبة جامعية ذاهبة لتعيش في سكن جامعي. إنّ النقطة الحاسمة في كلّ هذا، أهمية التّصوّر
الإبداعيّ والتّعزيز الإيجابيّ لامتلاك الخيال. هناك أغنية قديمة تقول: ياله من خيال غريب
ذلك الذي يجعل اليوم الغائم مشمساً. وهذا صحيح تماماً، ذلك أنّ اتجاهاً غائماً ومرعباً
يمكن أن يسبب قلقاً تجاه التّغيير، في حين يمكن للخيال الإيجابيّ أن يجعل الأمور تسير
على ما يرام— في العقل أولاً، حيث تخزن هناك كحقيقة، ثم في الواقع ثانياً، لأنّ الطّفل قد
تدرّب عليها فعلاً.

وقد كتب الشاعر الإنجليزي ويليام بليك (1757 – 1827) أهم الكلمات إطلاقاً التي قرأتها عن الموضوع: «تصورات الإنسان هي التي تحدّد رغباته، ولا يمكن لأيّ إنسان أن يرغب في شيء لم يتصوره».

علينا التفكير في هذه الكلمات ضمن سياق مساعدة الأطفال على تصوّر أنفسهم من منظور إيجابي لا سلبيّ. وعلى الأطفال أولاً أن يتصوروا شيئاً عن التّغيير من أيّ نوع، ثم تتحدّد رغباتهم بناءً على ما يتصورونه لأنفسهم. وهنا يكون دور الآباء مهمّاً فيما يتصورونه، وبخاصة التّعزيز الذي يمنحونه للتصورات المبكرة للأطفال الدارجين. أمّا إذا سخرت من هذه التّصورات، فإنهم يتوقّفون عنها، أو يشروعون في تصوّر أشياء سيئة. ولذلك شجّعهم على أن يتصوروا أنفسهم بعدة طرق إيجابية ممكنة، حتى وإن كانوا لا يتفقون معك في هذا الوقت، أو أنهم يقاومون ما تحاول تعزّيزه. والمطلوب منك هو الاستمرار في تعزّيز الصّور الإيجابية طوال الوقت. ولن يمضي وقت طويل حتى تنغرس هذه الصّور في ذاكرتهم، ويصبح التّصوّر الإيجابي عادة عندهم.

وقبل التّطرّق إلى بعض الاستراتيجيات الإيجابية التي يمكنك توظيفها في مساعدة أطفالك من الأعمار كافة على تقبل التّغيير بدل الخوف منه، من المهم لك أولاً أن ترى بعض أنواع الأشياء المحددة التي يفعلها الآباء جميعهم من حين إلى آخر. وهي، في الحقيقة، تشجع الأطفال على الخشية من التّغيير. اقرّأ هذه القائمة (قد تملأ خمسين صفحة، ولكننا اختصرناها لإعطائك فكرة عن كيفية حدوث هذا التّعزيز السلبيّ بخصوص التّغيير)، لتعرف فيما إذا كنت شخصياً تقوم بهذه الأشياء. ويمكن أن تكون هذه القائمة نقطة بداية بالنسبة إليك لتتحقق مما تغرسه في نفوس أطفالك عندما تفكر وتتصرف بهذه الطّرق.

كيف نشبّط الاتجاهات الإيجابية تجاه التّغيير؟

فيما يلي مجموعة من الممارسات التي تعزّز مقاومة التّغيير في نفوس الأبناء:

- المبالغة في التحذير من أخطار الحياة. لا تقترب من الماء، ابتعد عن هذا النوع من الأطفال، أنت لا تزال صغيراً على تسلق شجرة أو لعب كرة القدم، سوف تجرح نفسك لو حاولت ذلك.

- ثني أطفالك عن تجربة نوع من الطعام. لن تحبه؛ أنا أعرف أنك تكره أي طعام يحتوي على الطماطم، أنت لا تحب الأكل الهندي، لم نأكل لحم البعير في حياتنا.
- منع أطفالك من الاطلاع على أي أفكار أو طقوس دينية عدا تلك التي تعتنقها عائلتك.
- تعريض أطفالك إلى وجهة نظر سياسية واحدة، مع التشديد عليها بعبارات مثل: كلنا ديمقراطيون في هذه العائلة، لقد كنا هكذا دائماً وسنظل.
- تشجيع الأطفال على الشعور بأنهم عاجزون تماماً بحرمانهم من محاولات تخطي الصعوبات في عمر مبكر. ويحدث ذلك عندما نسرع إلى نجدتهم وهم يواجهون عقبة في أثناء زحفهم بدلاً من الانتظار لمعرفة نجاحهم في تخطيها. أو قد نحملهم ونرفعهم عندما يشعرون ولو بضيق بسيط.
- عدم السماح لأطفالك بالاعتقاد أنهم يسيطرون على أنفسهم، واستخدام عبارات مثل: لا يستطيع مساعدة نفسه. عمره سنتان فقط. لا يستطيع أن يجلس على الكرسي وحده، انتظر ماما سوف تساعدك. ما زلت صغيراً على إطعام نفسك. لا تستطيع ارتداء ملابسك بعد – عليك الانتظار إلى أن تصبح كبيراً مثل بابا.
- تشجيع أطفالك على التشبّه بالآخرين في لباسهم.
- ردع أطفالك عن تحدّي أيّ أفكار أو التشكيك فيها. المعلم دائماً على حقّ، لا يمكنك أن تناقش معلمك. القانون هو القانون. افعل هذا فقط، ولا تطرح أيّ أسئلة.
- تشجيع اتجاهات الخوف. سوف يخرج لك الجن من تحت السرير إذا لم تذهب إلى النوم الآن. الغرباء جميعهم سيئون. سيلتهمك الغول إن لم تنفّذ ما أمرك به.
- أن تكون إنساناً خائفاً؛ فتكون قدوة لأطفالك.
- أن تسخر من أحلام أطفالك، مع استخدام عبارات توبيخ وتحذير، مثل: كن واقعياً.
- عندما تكون الحكم في النزاعات جميعها بين أطفالك.
- أن تحلّ خلافات أطفالك مع الجيران بأن تهرع لنجدتهم عندما يواجهون أيّ مشكلة.
- سلوك الطريق السهل في الحياة، وتشجيع أطفالك على اتباعه.

- ضيق صدرك تجاه أشخاص آخرين، وتحدث عن كراهيتك لهم في البيت، وتشجع أطفالك أن يحملوا الهم الضّغائن أنفسهم.
- تشجيع التّوكل على الوالدين طوال سنوات طفولتهم، وجعلهم يطلبون الإذن لأيّ شيء يفعلونه، أو يفكرون فيه.
- التخطيط لمستقبلهم طوال الوقت، وإعداد أنشطة بطريقة لا تترك لهم وقتاً للتفكير أو التّصرّف وحدهم.
- أن تعيش حياتك من خلال إنجازات أطفالك، وتشجيعهم على الشّعور بالذنب عندما لا يرغبون في انضمامك إلى أنشطتهم.
- رفض تقبّل أيّ وجهة نظر معارضة؛ وبذلك تكون مثلاً يحتذي به أطفالك. وأن تفترض أنك دائماً على حقّ في أيّ خلاف مع من هم أصغر منك سنّاً.
- منع أنشطة المغامرات جميعها، مثل: المشاركة في مخيم، الذهاب إلى مجمّع تسوّق، الذهاب في رحلة إلى البر، ركوب الدراجة الهوائية إلى مسافة بعيدة، أو أيّ شيء آخر قد يفعل الصغار وينطوي على مخاطرة.
- إطلاق أو صاف على أطفالك. أنت لست رياضياً. إنك مجنون العائلة. يا لغباك، ستظل كذلك.
- الإصرار على حصول أطفالك على علامات عالية في المواضيع جميعها، وإعطاء الأولوية للتحصيل مهما كان الثمن، والتفوق في الأداء في كلّ شيء. وهكذا، تجعل العلامات والفوز أهم إنجازات الحياة.
- الحكم على الأطفال، ومنح الحب لهم، فقط، بناء على أدائهم في كلّ شيء يقومون به.
- إعطاء النقود قيمة كبرى، والحكم على الأشياء وفق هذه القيمة.
- رفض أيّ شيء لا علم لك به، ووصفه بالغريب، ثم عدم السّماح لهم باستكشاف أيّ من هذه الأشياء الغريبة، مثل التأمّل والاسترخاء.
- منع مناقشة الأمور الجنسية، واعتبارها محرّمة إلى حين الزواج.

- اعتناق الأفكار المسبقة والتمطية عن الجنسين. دلال ابنتك يخزيك ودلال ابنك يغنيك.
 - إدانة الفشل، ومعاقبة كل من يتلفظ بأنه حاول وفشل.
 - تذكير الأطفال بمحدوديتهم، وإعطائهم أمثلة على أشخاص يخافون من تفوقهم، والقول لهم: أنت مجرد ابن قرية صغير؛ تذكر هذا.
 - تصحيح الأطفال باستمرار عندما لا يتكلمون بلغة سليمة، أو يخطئون في عدّ النقود، أو يقولون شيئاً لا يتفق مع فهمك له.
 - تصيدهم وهم يعملون شيئاً غير صحيح، وتذكيرهم دائماً بأخطائهم السابقة. وتعزيز السلوك السلبي من خلال عدم تناسي الأخطاء السابقة، سواء أكانت أخطاءك أم أخطاءهم، مقدماً مثالا لشخص لا يتوقف عن توبيخ نفسه وتأنيبها على أخطاء مضت.
- من الممكن لهذه القائمة أن تستمر إلى ما لانهاية. ومع ذلك، فإنّ الفكرة واضحة.
- والآن، وبعد أن قرأت بعض الطرق الشائعة التي قد تشجع أطفالك من خلالها على أن يخافوا من التغيير ويتجنبوا المجهول، دعنا نلقي نظرة على مكاسبك، أو الأسباب الخفية لفعل ذلك. وعندما تتوصل إلى معرفة كيفية التخلص من التفكير والتصرف بهذه الطريقة، سوف يصبح بإمكانك أن تتطلع إلى طرق جديدة محسّنة لبهاء الحياة، تستطيع من خلالها التفاعل مع أطفالك.

نظام الدعم السيكولوجي لمنع المخاطرة

تذكر دائماً أن السلوك الذي تكررّه هو السلوك الذي يعطيك الرضا النفسي بطريقة أو بأخرى. ولا شك في أنّ أنماط السلوك التي تشجع الأطفال على تجنب المجهول ومقاومة التغيير هي بالضرورة سلوكيات عصابية ومدمرة للذات. سنتناول في النقاش التالي بعض المكاسب التي تحصل عليها من تشجيع التفكير والسلوك السلبيين. وأنت تقرأ القائمة التالية، حاول أن تتوقف عند العبارات التي قد تنطبق عليك؛ فأنت:

- ترى الحياة محفوفة بالمخاطر، والعالم مكاناً خطيراً ومريباً. إن لم تكن مستقلاً، فسوف تربّي أطفالاً متواكلين، خجولين، وتابعين، يعتمدون عليك كثيراً. ولأنك راشداً

متواكلاً فإنك تشجعهم على أن يكونوا مثلك. إن من السهل عليك تعليمهم الخوف من الخبرات الجديدة؛ فهذا هو كل ما تعرفه. وهو ما يجعلك تشعر بأهميتك وأنت ترى أطفالك يتعلقون بك، بدلاً من تعليمهم استكشاف عالمهم بأنفسهم.

- لا تريد إشغال نفسك بسلوك لا يتوافق مع طريقتك في الحياة. تعدّ التبعة بالنسبة لك فضيلة في البيت والمدرسة، وفي الحياة بصورة عامة. لذا، فإن حياتك ستكون أسهل إذا تعلم ابنك أيضاً الخضوع والانصياع، تماماً مثل أيّ إنسان آلي.

- تفضل العيش المألوف لا استخدام قدرة التفكير لديك. غالباً ما يشجع الأطفال الذين يخشون التغيير على ما يؤمرون به فقط، تماماً مثلما فعل آبائهم من قبل. وهذا هو أسهل طريق يمكن أن يسلكه مثل هؤلاء الأطفال، ولكنه منحى غير قويم للتنشئة لأنه يكبح الطّاقة الإبداعية.

- تشعر بالأمان لأنك فرد في مجموعة. وهذا يجعلك ترضى بفعل أشياء كما يفعلها الآخرون؛ فما أنت إلا فرد في قطع. وتتلخص طريقتك في تجنب الانتقاد من الآخرين، وأن تعيش حياة آمنة. وفي الحقيقة أن البقاء مع الأغلبية التي تخاف التغيير هو مكسبك بحدّ ذاته، مع أنه منحى جبان تجاه الحياة. وتذكر ما قاله سابع رئيس للولايات المتحدة الأمريكية أندرو جاكسون (1767 – 1845): «رجل واحد شجاع يشكّل أغلبية». ولكن التفكير مثل أغلبية الناس هو في الحقيقة المنحى الأسهل والأقل شجاعة، وهو الذي يمكن أن تشجع طفلك على اتخاذه.

- تهتم كثيراً في أن تكون محقّقاً أكثر من أن تكون سعيداً. إنك تشعر بينك وبين نفسك أنك على حق عندما تعلم أطفالك التمسك بالمألوف وتجنّب التغيير والمجهول. وفي الحقيقة أن من الصعب إيجاد تقييم لهذا المألوف. ولهذا، فإننا نشجع أطفالنا على البقاء في الأوضاع التي يمكننا أن نصفها بالصّحيحة.

- باختيارك البعد عن التغيير، تتجنب المخاطر والفشل في أيّ شيء. فإذا كنت تعتقد أن الفشل أمر سيّئ، فلا شك أنك سوف ترغب في تجنّب أيّ شيء قد يسبّب الفشل. وبما أن الفشل مثقل بوصمة العار في ثقافتنا الموجهة نحو الإنجاز والتحصيل، فإننا جميعاً نبذل ما بوسعنا لنكون فائزين. وهذا، عادة، يعني تجنب المخاطر جميعها بأيّ ثمن، وتشجيع الأطفال على السير حذونا.

• من خلال كبحك لخيال الأطفال الذين يحبون أن يحلموا، فقد تعتقد أن باستطاعتك حمايتهم من مواجهة أي إخفاقات في حياتهم. إنك بذلك تشجعهم على أن يظلّ سقف طموحاتهم منخفض، وأن يتمسكوا بالمألوف، ويتجنبوا المخاطر، وأيّ خيبات أمل أيضاً. ونظراً لكوننا آباء، فإنه يصعب علينا رؤية أطفالنا يصابون بخيبة أمل. وعليه، فإننا كثيراً ما نطلب إليهم عدم النظر بعيداً. ونحن نشعر بالارتياح إذا ما اعتقدنا أنهم قانعون. وربما يكون هؤلاء الأطفال قانعين، ولكنهم لن يكونوا أبداً أفراداً غير محدودين، لأننا حرمانهم حتى من الحلم بتفوقهم بدعوى تجنّب الإحباط. (في الحقيقة، معظم الإحباطات التي نخشاها هي إحباطاتنا نحن، وليست إحباطاتهم).

• تحرم أطفالك من التجوال في مناطق جديدة ومجهولة تحت زعم: إذا كان الأمر جيداً بالنسبة لي، فهو جيد لأطفالي أيضاً. إنّ هذا الاتجاه مناسب؛ لأنه يحميك من تجربة أشياء جديدة. كما يعفيك من تحمّل أيّ مسؤولية قد تتحمّلها في حال كان أطفالك مختلفين. ومن المؤكد أنّ فعل الأشياء بالطريقة التي تفعلها بها دائماً تمهد أمامك طريقاً سهلاً وآمناً، ولكن من المستحيل تحقيق التقدم والنموّ إن لم تغيّر الطريقة التي تفعل بها الأشياء دائماً.

كانت هذه هي المكاسب النفسية الرئيسة التي ستحصل عليها من عدم تعليم أطفالك عن حتميّة التّغيير والمكافآت المحتملة من اكتشاف المجهول. فإذا كنت تدرك إلى أيّ مدى يمكن أن تكون هذه الاتجاهات والسلوكيات مدمرة للذات بالنسبة لك ولأطفالك، وإذا كنت تدرك أنّ أطفالك لن يكونوا قادرين على أن يصبحوا أشخاصاً مكتملين وغير محدودين إذا كانت الاتجاهات نفسها تتكرر جيلاً بعد جيل، فعليك أن تبدأ بالبحث عن بعض الطرق الجديدة للتفكير والتصرّف مع أطفالك.

وسنورد الآن بعض الطرق الجديدة والمثيرة لمساعدة الأطفال على تقبّل التّغيير بدل الخوف منه، وعلى ارتياد عوالم مجهولة بدل الالتصاق بالنماذج القديمة إلى الأبد. ولا تنس أنّ الإنسان اللامحدود يسعى وراء الجديد والغامض، ويجب أن يرى التّغيير إلى الأفضل. وإليك بعض الطرق والأفكار التي إذا ما اعتادها الأطفال، فسوف يصبحون من المرشحين بالمجهول دائماً، وليس الآن فقط.

أفكار لتشجيع الأطفال على البحث عن المجهول لا الخوف منه

• زواج بين المنحى العقلاني للحذر، وتشجيع استكشاف الأسئلة، والمناطق، والأفكار الجديدة. والنظر إلى الحياة على أنها مغامرة وليس سبيلاً للانصياع والتبعية. من الضروري في عالمنا اليوم تحذير أطفالنا من الأخطار الحقيقية المحدقة، وأن نجعلهم يتصرفون بطرق حذرة جداً عندما يتعلق الأمر بركوب سيارة مع غرباء، وضرورة السباحة مع مرافق، وعدم السير في الشوارع ليلاً، وهكذا. ومع ذلك، فقد يبالغ أحدنا في الحذر لدرجة النظر إلى العالم كله على أنه خطر ومليء بالشّر، وعلينا الخوف منه.

في المجتمعات كلها أخطار حقيقية، ويسقط كثير من الضحايا بسببها. ومع ذلك، فإنّ الطفل الذي يخاف من المجهول سوف لن يتمكن أبداً من تطوير المهارات الضرورية للتعامل مع الخطر، أو القدرة على التمييز بين وضع خطر وشيء جديد ومثير. وبالتأكيد، فإنّ الغرباء ليسوا سيئين جميعهم. وإنّ لم نتحدث إلى إنسان غريب، فسوف لن نتعرّف إلى شخص جديد طوال حياتنا. ومن الطبيعي أن يراقب شخص راشد الأطفال الصغار جداً طوال الوقت، ولكن عندما يكبرون، يجب تشجيعهم على تمييز الحالات الخطرة بأنفسهم؛ لأنهم لن يقضوا حياتهم تحت المراقبة والملاحظة في كل لحظة. ولذلك، فإنّ الجمع الواعي بين الحذر والتشجيع على الثقة بحدسهم الفطري عندما يشكون أنهم أمام مشكلة، متوافقاً مع التشجيع لتجربة أشياء جديدة، سوف يساعد الأطفال على التّموّل بطرق لا محدودة. وبغير ذلك، فإنهم سوف يكبرون وهم خائفون، ولن ينظروا أبداً إلى داخلهم ليتخذوا قراراتهم بأنفسهم حول ما يشكل خطراً من غيره.

• شجّع الأطفال على تناول أطعمة جديدة، وإعداد وجبات لا تحبها أنت شخصياً. فمثلاً، لماذا يجب أن يكبر أطفالك وهم يكرهون الملفوف لأنك لا تحبه؟ فلو أنهم تذوّقوا الطّعام الباكستانيّ والأندونيسيّ وخلافهما، فإنهم سوف يكبرون وهم يعرفون خيارات كثيرة، بدلاً من أن يكونوا مقيدين بنوع محدد من الوجبات طوال حياتهم بسبب اعتيادهم عليها منذ صغرهم. إنّ الأشخاص اللامحدودين هم الذين لديهم خيارات في الحياة، وليس أولئك المقيدون بتحيزات غير ذات قيمة انتقلت إليهم من الأجيال السابقة. ولذلك، فإنّ الحياة ستكون ممتعة أكثر للأشخاص الذين يستطيعون، تقريباً، تناول أي نوع من الطّعام، والمستعدين لتجربة شيء لم يخبروه من قبل.

• حاول أن تجعل الأطفال يزورون أكبر عدد من أماكن العبادة المختلفة. وعرفهم، وهم في عمر مبكرة على الأفكار العظيمة لمفكري الأديان حول العالم وطوال التاريخ، واجعلهم يفكرون ويؤمنون بدينهم عن علم ووعي. وحيث لا يوجد في العالم من يمكن أن يحتكر التفكير والسلوك، فنحن نريد للأطفال أن يفكروا بحرية، وأن يتصرفوا تجاه الآخرين بناء على مجموعة مبادئ أخلاقية يؤمنون بها في داخلهم.

• حاول أن تتجنب وأطفالك الشعارات السياسية كلها. واسمح لهم أن يتعرفوا وجهات النظر جميعها، وتكوين قناعاتهم الخاصة. لا تقل لهم إننا ننتمي إلى هذا الحزب أو ذلك، بل اجعلهم يبحثون ويعرفون الاختلافات بين الأحزاب، وأن لا يكون انتخابهم لحزب بعينه، وإنما للمرشح الذي تجذبهم آراؤه إليه كإنسان مفكر. إن الحزب ليس سوى مجموعة أفراد يلتقون معاً لنشر وجهة نظر معينة. ولذلك، فإن الشخص الذي يدلي بصوته لأي مرشح يختاره الحزب هو إنسان لا عقل له، ويسلم زمام أمره للآخرين ليقرروا نيابة عنه. وينطبق هذا الحال على كل من يصوت لمرشح الاتحاد أو النقابة، أو المرأة بناء على لونه أو مجموعته. علم الأطفال كيفية التفكير باستقلالية، وأن يكونوا ذوي رأي مستقل. وأعطهم مثالا لشخص يفعل مثلهم. علمهم كيف يتحاشون التصنيفات السياسية، وكيف ينفردون باتخاذ قراراتهم. ومن المناسب هنا إيراد ما قاله الفيلسوف الدانماركي سورين كير غارد (1813 – 1855): عندما تصنّفني، فأنت تلغيني.

ولأنك لا تريد أن يكون أطفالك مجرد تابعين بلا رأي أو التزام، فإن السبيل الوحيد للتأكد من عدم حدوث ذلك هو تشجيع كل طفل منهم على أن يكون فرداً أولاً؛ قائداً، لا تابعاً.

• شجع الأطفال الصغار ليكونوا مستكشفين منذ الصغر. إن الطفل الذي نساذه في كل صعوبة بسيطة يواجهها سوف يلتقط الرسالة التالية: هناك شخص كبير سوف يحلها نيابة عني، فلم المحاولة؟ عندما يحاول الطفل إطعام نفسه، ولا يهتدي إلى فمه، ويضرب بالملقعة أنفه وجبهته، اتركه يفعل ذلك، وانتظر قليلاً. وعندما ينجح في إيصال الطعام إلى فمه، عزّزه إيجابياً؛ وصفّق له بيديك، وانظر إليه وهو يبتسم. اتركهم يرتدون ملابسهم بأنفسهم إذا أرادوا ذلك، حتى لو ارتدوها بالمقلوب. دع الأطفال الرضع يبذلون جهداً وهم يحاولون الإمساك بمخدة ملقاة على الأرض، أو يحاولون التقاط لعبة بأصابعهم

الغضّة. علّمهم المثابرة منذ البداية وكافّهم على ذلك. كلّ طفل في هذا العالم يقول: أبي، أستطيع أن أفعل ذلك وحدي كلّ يوم تقريباً. إلا إذا جرى تلقينه بحيث يعتقد بأنه لا يملك عقلاً خاصّاً به، وأنّ أمه أو أباه هما القادران على فعل ذلك له. وقد سمعت كثيراً من الآباء يقولون أشياء سخيّة مثل: كلّ هذا الآن - أعتقد أنّي لا أعرف متى تكون جائعاً؟ أو: البس هذا المعطف في الخارج - أعتقد أنّي لا أعرف متى تشعر بالبرد؟ ولذلك، علّمهم منذ البداية أنهم يستطيعون اكتشاف فضائ حياتهم الصغير دون تدخل مستمر من شخص كبير ينقذهم ويعلمهم الاستسلام حتى قبل أن يبدووا المشي.

• ومن خلال التّمدجة والتّعزيز الإيجابيّ المنتظم، علّمهم أنّ على الإنسان ألا يكون عبداً للموضة الدارجة. ومع أنّ من المؤكّد أنهم قد يُشجّعون على الاستمتاع بالموضة العابرة، إلا أنّ عليهم تعلّم أنّ هذه الموضة يجب ألاّ تقيدهم، وأن يشعروا أنّ بإمكانهم التّحرّر منها بسهولة عندما يتخلّون عنها. عندما يصرون على شراء بنطال الجينز الأزرق، أسألهم: لماذا تريدونه حقّاً؟ هل لأنهم سوف يبدوون جذابين عند ارتدائه؟ أم لأنهم يريدون الارتداء فحسب؟ لذلك، تحدث إليهم عن أهمية اختيار ملابسهم بناء على ما يريدونه، وليس بناء على ما يلبسه الآخرون. حارب التّبعيّة في اللباس، أو أيّ شيء آخر، إذا كان ذلك لغرض التقليد فقط. وعلّمهم أيضاً ألا يكونوا عبيداً للعلامات التجارية والمصممين المشهورين؛ لأنّ الحاجة إلى التّقليد مجرد وسيلة للتمسك بالمألوف أو الانقياد للأغلبية، وتجعلك تفكر وتتصرف وتلبس كالآخرين. فإذا كنت تربي أطفالك ليكونوا مثل أيّ إنسان آخر، فما الذي تبقى لديهم ليقدموه؟ عندما يرغبون في الحصول على شيء يلبسه كلّ شخص آخر، أسألهم مباشرة: هل تريدون هذا لتكونوا مثل الآخرين، أم أنكم تحبونه لأنّه يبدو جميلاً عندما ترتدونه؟ وإذا ما ظلوا يريدونه بعد هذه الأسئلة، فشجع كلّ واحد منهم مهما كان عمره ليساهم بشيء من أجل شرائه.

• عندما يتشاجر الأطفال، دعهم يعرفون أنك تدرك أنّ هناك وجهين للمشكلة. وعن ذلك قال الفيلسوف الهولندي باروخ سبينوزا (1632 - 1677): «مهما قطعّتها إلى قطع رقيقة، فسوف يظلّ للمسألة جانبان دائماً». ولذلك، احذر أن تطلب إلى الأطفال إطاعة القوانين جميعها، وفعل ما يُقال لهم، وأنّ المعلم على حق دائماً، أو أنّ عليهم احترام كبار السن دائماً.

وأنت بلا شك لا تريد طفلاً بطاعة عمياء بدلاً من إنسان لا محدود.

وإذا كنت لا تريد لأطفالك أن يكونوا هكذا، فعليك أن تشجعهم ليسألوا: لماذا؟ ولا توبخهم عندما يشككون في الممارسات الثابتة المتوازنة، ولا تأمرهم أن يفعلوا شيئاً ما لمجرد أن الآخرين كلهم يفعلون ذلك.

إنّ التغييرات التي أدخلت تحسينات إلى عالمنا لم تحدث على يد أفراد اتخذوا الإذعان اتجاهاً لهم، وإنما كانت نتيجة جهود أفراد تحدّوا الممارسات الراسخة عندما رأوا أنها باتت غير ملائمة. فلا تنزع ومضة التحدي من قلوب أطفالك، إلا إذا كنت تريد لهم مُرتَهني الإرادة وتابعين.

وفي الوقت ذاته، علّم طفلك أنه لا يوجد فرق بين المطابقة في الرأي والموقف من أجل أن يكون مثل الآخرين من جهة والمخالفة من أجل أن يكون مختلفاً فقط. إنّ المخالف الذي يودّ أن يكون على الجانب الآخر من السياج يظل محكوماً بإرادة الآخرين وسلوكياتهم، وهذا النوع من المخالفة هو سلوك عصبيّ، مثلما هو الانصياع للأسباب ذاتها.

شجّع أطفالك على النظر إلى داخلهم بصدق، وأن يحترّضوا على التحسين كلما استشعروا ظلماً. صحيح أنه قد تمر أوقات يكون فيها الانصياع أكثر فاعلية من المقاومة، لكن الإنسان اللامحدود لا يعارض المقاومة، بل يعارض المقاومة العنيفة التي لا طائل من ورائها.

في إحدى المرات، كانت لوري التي تبلغ من العمر 15 عاماً تواجه مشكلة مع معلمتها التي هدّدت بنقلها إلى صف آخر، وقد شجعتها شخصياً أن تعيد النظر في مقاومتها العنيفة. وأوضحت لها أنها كانت تحمي نفسها من خلال محاولتها إصلاح معلمة الجبر، ونصحتها بأن تركز بهدوء على تعلم الجبر وأن تنسى خلافها الشخصيّ مع المعلمة. وعندما عملت جاهدة على التخلص من كرهاها لمعلمتها، استطاعت، أخيراً، أن تركز على دروس الجبر، وأن تنجح فيها دون مزيد من المشكلات.

لقد كان هدفها الأول والأخير هو أن تنجح في الجبر، وأن تستمر في دراستها. وقد دهشت عندما شجعتها بعد أشهر قليلة من المشكلة الأولى لتعمل من خلال مجلس الطلبة والإدارة المدرسية على إلغاء قانون مجحف للزّيّ المدرسيّ الموحد. ففي حالة دروس الجبر، كانت لوري، في واقع الأمر، تناضل لتحقيق أهدافها بطريقة متهوّرة، في حين مثّل

قانون الزِّي المدرسيّ ظلماً حقيقياً شعرت أن من واجبها العمل على إلغائه. وهكذا، عليك أن تعلّم أطفالك من مختلف الأعمار أنّ الاحتجاج أمر رائع. وأنّ محاربة الظلم أو الدفاع عن وجهة نظرك أمر مثير، ولكن القتال العبثي الذي سيجعلهم ضحايا في نهاية المطاف مجرد مضيعة للوقت.

- لا تخلق وحوشاً خيالية في عقول أبنائك لإسكاته مؤقتاً؛ فهذا يولد لديهم الخوف، والأطفال الخائفون يصبحون أكثر خوفاً من المجهول عندما يكبرون. يضاف إلى ذلك أنّ خوف الطفل ذي العامين من المخلوقات الخيالية يكون بالحدّة نفسها لسماعك أصواتاً غريبة في الغابة في ليلة ظلماء، أو تصورك لعملاق طوله 60 قدماً يهجم عليك لابتلاعك. إنّ هذا الوحش بالنسبة إليهم هو أنت في واقع الأمر. وعلينا إدراك أنّ أساليب التخويف تثير اتجاهات خائفة من الحياة، كما تجعل الطفل ذا طبيعة متشككة. لذا، فإنّ الطفل الذي يخاف من الظلام (رمز المجهول)، لأنك تستغل سذاجته، يمكن أن يظلّ خائفاً طوال حياته.

العالم مكان جميل، مثلما التّغيير خبرة رائعة. وإذا ما ذكّرت طفلك بهذه الأشياء دائماً، فإنك تجعل منه شخصاً إيجابياً ومتفائلاً. ويمكنك أن تحارب المخاوف المبكرة بطرق كثيرة، كأن تقول لطفلك أو طفلتك: لا توجد مثل هذه الوحوش في الحياة الحقيقية. ولا يوجد وحش ليأكلك. انظر! أنت صبي كبير ويجب ألا تخاف – هيا بنا نذهب إلى هناك، ونتأكد معاً عدم وجود أيّ وحش. وكثيراً ما يتعلّم الأطفال الصغار هذه المخاوف من أشقائهم وشقيقاتهم الأكبر سنّاً، أو من أفلام الرّعب، أو من نشرات الأخبار. وللقضاء على هذا الخوف؛ علّمهم منذ عمر مبكر أن يكونوا مستكشفين، وأن لا تكون لديهم مخاوف غير مبرّرة. عندئذ، سوف يقطفون نتائج هذه المواقف طوال حياتهم. كما أنّ عليك إظهار عدم خوفك، وأن تبين لهم أنّك تتخذ إجراءات احترازية، ولكن لا تتحدث أمامهم عن الغول والمارد وخلافهما.

- عزّز إيجابياً أيّ أحلام أو أهداف لديهم، مهما بدت لك مستحيلة. إنّ الشاب اليافع الذي يقول لك إنّّه يريد أن يصبح طبيباً، ولكن علاماته متدنّية، ليس بحاجة إلى محاضرة في الواقعية وعدم رفع سقف الأحلام. وما يحتاج إليه هو الدّعم بعبارات مثل: ولِمَ لا؟ ثابر من أجل ذلك. لم يفت الأوان بعد. أو: أنا متأكد من أنّك إذا صممت على أيّ شيء، فسوف

تحقيقه. وحتى لو كنت متأكداً تماماً من أن الطفل لن يحقق أهدافه ليصبح رائد فضاء، مثلاً - ربما بسبب قصوره أو ضعفه في العلوم - إياك، ثم إياك، أن تقتل الطموح لديه. إنَّ أسوأ شيء يمكن أن يحدث له هو أنه قد يعيد تقويم أهدافه عندما يبدأ بمواجهة بعض الصعوبات. وبالرغم من ذلك، فإنه قد يفاجئك في يوم ما؛ ما أدراك؟ شخصياً، أتذكر كثيراً من معلمي اللغة الإنجليزية الذين عرفتهم طوال حياتي المهنية، كانوا يقولون إنني لن أستطيع أن أكتب محاضراتي إلا إذا غيرت أسلوبِي جذرياً. ولكنني كلما كتبت أكثر بطريقتي وبأسلوبي، اكتشفت أن أساتذتي كانوا مخطئين.

وفي هذا السياق، يحتاج الأطفال إلى معرفة أنَّ كلمة المستحيل غير موجودة في قاموسك، وأنك تدعم أحلامهم مهما بدت لك سخيفة في حينها. ولك أن تتصور كيف شعر السيد والسيدة رايت عندما أخبرهما ابناهما الأخوان ويلبور واورفيل رايت أنهما ينويان الطيران، أو شعور والد أديسون عندما أخبرهما أنه يحلم بإضاءة العالم دون مشاعل. بل ماذا عن مشاعر والدي هنري فورد عندما طرح فكرة استبدال السيارات بالخيول؟ دعمهم يحلمون، وشجعهم على أن تلامس أحلامهم أطراف السماء. لا تحبطهم، بل اجعلهم يتحدثون إليك أكثر عما يمكن أن يفعلوه، وناقشهم في كيفية تحقيق ذلك. ولا تتوقع أنَّ شخصاً ما سوف يخترع في يوم من الأيام دواء للسرطان أو تصلب الأنسجة المتعدد إذا ما قيل له: لا تكن سخيلاً! لقد كانت هذه الأمراض موجودة دائماً، وبالتأكيد أنك لن تغير هذه الحقيقة. والآن، كن واقعياً وتصرف مثل الآخرين.

- شجع الأطفال على سلوك الطريق الصعب. دعهم يعرفون أنهم لن يخيبوا أملك فيهم عندما تكون علاماتهم متدنية لدراستهم موضوعاً صعباً، أو لاختيارهم أن يتعلموا من معلم معروف بأنه علامة، ولكنه متشدد في التصحيح وإعطاء العلامات. وإذا ما أرادوا القفز إلى بركة السباحة من المنصة العالية، علمهم أن يفعلوا ذلك بطريقة مأمونة، ثم اسمح لهم محاولة ذلك. وامدحهم عندما يجربون أشياء صعبة، مثل الرياضيات الحديثة، والاقتصاد، وحل لغز معقد، والسباحة تحت الماء في البركة، أو تسلق شجرة. وعلاوة على ذلك، أرهم أنك أيضاً مستعد لتجربة أشياء صعبة في الحياة وأنك لا تهرب من مسار صعب، وأنك تواجه جاراً يسبب كثيراً من المشاكل، وتساوم وحدك مندوب مبيعات مزعجاً. وكلما أظهرت لهم مباشرة أنك أيضاً مستعد لتجربة احتمال الفشل، وأنك لا

تسلك الطريق المعروف دائماً، وفّرت لهم مزيداً من الشجاعة والجَلَد لاستكشاف العوالم المجهولة.

- لا تظهر تعصبك ضد الآخرين. نحن نتحيز فقط ضد ما نجهله، لأنّ التحيز يعني حرفياً أن نتحيز دون خبرة. ومن شأن هذه المواقف أن تشجع الأطفال على الابتعاد عن الأشخاص الذين تعلّموا أن يكرهوهم، وسوف يجدون أنفسهم بعد وقت ليس ببعيد أمام سدود حياتية كثيرة. وفي المقابل، فإنّ الأشخاص اللامحدودين لا يتحيزون ضد أحد. وفي الحقيقة، فإنهم لا يصرون أحكاماً على أيّ أحد إطلاقاً، بل يتقبّلون الآخر، ومن يختلف عنهم كذلك. وكلما عزّزت لديهم الوعي بتقبّل من يختلفون عنهم بأيّ وجه، والتعرف إليهم ومعاشرتهم، زادت مساعدتك لهم في عملية التّموّ. زد على ذلك، أنّك تفعل الكثير لإزالة الحواجز التي تفصل الناس بعضهم عن بعض؛ لأنّ تعليم التسامح وحب الآخرين، إذا ما مورس على نطاق واسع، قد يضع حدّاً للنتائج الرهيبة للكرهية المنتشرة في هذا العالم. لذا، فإنّ الطّريقة الوحيدة لتغيير العالم هي البدء بنفسك وبأبنائك. وقد استخلص عالم النفس الأمريكي غوردون آلبرورت (1897 – 1967) الذي كتب عن التعصب وشخصية الفرد أنّ أمهات الأطفال المتعصبين، كن يعتقدن أكثر من أمهات الأطفال غير المتعصبين أنّ الطاعة هي أهم شيء يمكن أن يتعلّمه الطّفل. والدرس هنا واضح تماماً؛ وهو أنّ الطاعة العمياء تخلق جيلاً تابعاً. ولذلك، علّم أطفالك أن يكونوا استقصائيين، وأن يتساءلوا بدلاً من قولهم: حاضر سيدي أو حاضر سيدتي. إلا إذا كنت تريد أن يصابوا بعدوى التعصب التي ألّمت بك من قبل.

- تذكّر دائماً أنّ مهمة التنشئة الأبوية هي تعليم الأطفال أن يصبحوا آباءً. ومن المهم جداً مساعدتهم ليصبحوا مستقلين، يتعلّمون التفكير لو حدهم بحرية. لذا، حاول مساعدتهم في هذه العملية بأن تتوقف عن مراقبة سلوكياتهم لدرجة عليهم فيها أن يطلبوا إذنًا منك لكل شيء يفعلوه أو يفكرون فيه.

ومن المهم هنا تحديد بعض المسائل المعيّنة التي تستدعي استئذانك فيها في مختلف المراحل العمرية. وبالطبع، فإنّ هذه المسائل تعتمد على وجهة نظرك الشّخصية حول استعداد كلّ طفل لتحمل المسؤولية أو جزء منها.

ومع أن هذا الاستعداد سوف يختلف من طفل إلى آخر، إلا أن من المهم مساعدتهم على البحث عن التوجيه داخل أنفسهم، وعدم الشك في أحكامهم. وكدليل على التنشئة الأبوية السليمة هو أن يطلب الطفل ذو العشر سنوات إذنًا للمبيت في بيت صديقه. أما إذا كان على الطفل أن يطلب إذنًا ليركب دراجته الهوائية إلى بيت صديقه، أو يشتري شيئاً بنقوده الخاصة في العمر نفسه، فعندها ربما أنك لا تسمح له بتحمل بعض المسؤولية. ومن المؤكد أنه كلما زادت المجالات التي يمكن أن تسمح لطفلك بتولي المسؤولية فيها، زادت معرفتهم بالمنطقة المجهولة المسماة بالتفكير المستقل. وفي ضوء ما تقدّم، لا نفترض أنهم لا يستطيعون تحمل المسؤولية قبل إتاحة الفرص أمامهم لذلك. وإذا ما أساءوا استغلال هذه الفرص، فمن الطبيعي، عندئذ، أن تقوم بسحب هذه الامتيازات.

كما يجب إعطاؤهم فرصة للتفكير والتصرف بحرية ضمن حدود معقولة حتى في عمر مبكر، إذ لا تحتاج طفلة عمرها سنتان إلى طلب إذن كلما أرادت أن تلهو مع لعبتها أو تأكل وجبة صحيّة. وعادة ما يمكن الاعتماد على طفل الخمس سنوات في اتخاذ القرار السليم للذهاب في رحلة، أو لاختيار أصدقائه، وفي تقرير ما يهمه كإنسان. أما الأطفال الذين يبلغ عمرهم عشر سنوات فقادرون تماماً على إعداد وجبة فطورهم، وغسل ملابسهم، وتنظيف غرفهم، واختيار أقران للعب معهم، واتخاذ قرارات كثيرة أخرى.

وباستطاعة المراهقين أن يسيروا حياتهم إذا ما توفّر لهم التوجيه السليم، وإذا ما عرفوا أن هذه الامتيازات يمكن أن تلغى إذا ما أساء استخدامها. وإذا ما اتفقنا على أن طلب الإذن لفعل أي شيء يدلّ على اتجاه طفولي، وأنه يجب الحصول على الإذن في بعض القضايا في مستويات العمر المختلفة، فمن المهم أن نتوقف فوراً عن مراقبة الأبناء والتفكير بدلا عنهم. وإذا لم تفعل ذلك، فإنهم سيستأوون منك لتدخلك المستمر في حياتهم، أو يتحولون إلى روبات آلية لا تفكر، ويستشيرونك في جميع الأنشطة اليومية، أو أنهم لا يقومون بأي شيء إلى أن يُطلب منهم ذلك.

وإذا ما شجعت الاستقلال الواعي عندهم، فسوف تجد أنهم قد اعتادوا التغيير والمجهول، والسبب الرئيس في ذلك هو أنهم قد حصلوا على إذن صامت وغير مكتوب لاختبار سلامة آرائهم وقدرتهم على اتخاذ القرار السليم. وعندما تأتي العطلة الصيفية، لا تعدّ لهم برنامجاً زمنياً لقضاء هذه العطلة، بل اعطهم فرصة التفكير والتخطيط بأنفسهم.

وفي الوقت الذي تعطيهم فيه استقلاليتهم، لتكن لديك بعض الاهتمامات الخاصة بك بدلاً من أن تعيش حياتك من خلال أطفالك، وتحول إلى متعلم بدل أن تظل معلماً طوال العمر. لقد سمعت عن آباء يملون على أطفالهم ما يفعلون، مثل هذه الأم التي قالت لابنها: يمكنك أن تترك درجتك الساعة التاسعة، ولكن يجب أن تعود إلى البيت الساعة العاشرة والنصف لاستقبال بعض الضيوف، ثم تناول الغداء معي ومع خالتك الساعة الثانية عشرة، ويجب أن تكون هنا الساعة الثانية للذهاب إلى معرض الكتب، وتستطيع أن تتحدث إلى والدك الساعة الرابعة والنصف الذي سوف يهاتفنا للاطمئنان علينا، ومن ثمّ سنتناول العشاء الساعة السادسة تماماً. بعدها، سنشاهد فلماً بعد العشاء، وأريدك بعد ذلك أن تنام الساعة الثامنة والنصف تماماً؛ لأنني أريد منك الاستيقاظ باكراً لتبدأ اليوم الرائع الذي أعدته لك غداً.

ولا شك في أننا عندما نخطط للطفل يومه بالكامل، فإننا لا نعدّه للتعامل مع المجهول أو لاستيعاب التغيير والتعاطي معه. فهذا النوع من الجدولة لحياة الطفل، يعلمه أنه لا يملك عقلاً خاصاً به، وأنه إذا ما أراد أن يعرف كيف يستمتع بوقته، فعليه أن يسأل والديه عن ذلك لعدم قدرته على تقرير مثل هذه الأشياء الحيوية بنفسه. ولا يعني ما أقوله التخلي عن طفلك وإهماله وتجاهله، وإنما الدمج الواعي بين مساعدة الأطفال على التفكير المستقل والاهتمام الشديد بسعادتهم. ولهذا، علمهم أن يتحملوا بعضاً من مسؤولية حياتهم، وأن لا بأس من تخطيط جزء كبير من حياتهم دون تدخل مستمر من أي شخص كان.

- **عش حياتك من خلال إنجازاتك أنت، واستمتع بإنجازات أطفالك.** لا تقحم نفسك بقوة في حياتهم لدرجة تصبح فيها عبئاً عليهم عندما يكبرون. فمع أنّ الاستمتاع بإنجازات أطفالك أمر رائع، مثل حضور مسابقات شعرية أو رياضية يشاركون فيها، إلا أنّ من المهم أيضاً السماح لهم بتجربة هذه الأشياء للمتعة التي تمنحها لهم؛ إذ يمكنك أن تكون مشجعاً متحمساً، ولكن عليك معرفة أنّ خبراتهم ملك لهم، كما خبراتك ملك لك. وهذا لا يمنع من إظهار أنّ لك اهتمامات خاصة بك، مثلما لهم اهتماماتهم الخاصة بهم. وإذا ما رأيت عليهم التأثير عندما تتركهم، فاشرح لهم بطريقة متفهمة ولكن حازمة، أنك أيضاً تحب أن تلعب مثلما يحبون، وأن لك هواياتك الخاصة، وأنت تريد قضاء وقت دونهم مع أصدقائك، ومن ثمّ انسحب، وسوف تكون أباً وشخصاً أفضل إذا ما شعرت بأنك راضٍ وهادف ومهم، بدلاً من أن تظل سجيناً في البيت لتحقيق رغبات

أطفالك. ويمكنك أن تقدم لهم أفضل مثال يمكن أن تعطيه لهم لإنسان يشعر بأنه راضٍ ومهم ونافع، ويتمتع بحياته إلى أقصى ما يستطيع. وبذلك، تصبح نموذجاً حياً حقيقياً للإنسان اللامحدود بالنسبة لهم.

وعليه، كن القدوة اليومية لهم لما يمكن أن يصبحوا عليه، حتى وإن عارضوك لجعلك تغير رأيك وتستسلم لطلباتهم. إنهم بحاجة إلى شخص سعيد ومحقق لذاته، وليس إلى شخص يعيش حياته من خلال الأطفال، والذي سيشعر بالقلق والتوتر عندما يسقطون ضحية للوحدة ومتلازمة العش الخالي (1) Empty Nest Syndrome

• تجنب إعطاء أطفالك أو صافاً سوف تقيدهم طوال حياتهم. على سبيل المثال، إذا قلنا لطفلة باستمرار أنها غير رياضية، فسوف تنطبع تلك الصورة في ذاكرتها. وسوف تصبح هذه الصورة بعد ذلك حقيقتها، وسوف يعزز سلوكها تجاه الرياضيين صورتها عن ذاتها. وبالنتيجة، سوف تتجنب المشاركة في أي نشاط رياضي، ويكرر سلوكها بالقول: ببساطة، أنا لست رياضية. لم أكن رياضية مطلقاً – لقد خلقت هكذا. لا حيلة لي في ذلك. لذا، شجع طفلك على تجريب كل شيء في الحياة، والتدريب في المجالات التي يشعر ضعفاً فيها، وتجنب التعتات الذاتية التي تحد من الاستمتاع بالحياة، إن لم نقل إنها تقلل من توقعاتهم عن أنفسهم. ومن المعروف أن كل إنسان قادر من حيث تكوينه الفطري على التفوق في مجال ما من مجالات النشاط الإنساني إذا كان مستعداً للجد والمثابرة. وعليه، لا تسمح لأطفالك لأن يفكروا ولو للحظة أنك شخصياً تعتقد أنهم لا يستطيعون فعل أي شيء بسبب الوصمة التي ألصقت بهم. وكلما سمعت أحدهم يقول: أنا لست موهوباً، أو لست جميلاً، أو لست بارعاً في الرياضيات، عليك أن تطعن في صحة ما قاله، وأن تتحداه، وتستفزه بالقول: لقد اخترت أن تفكر في نفسك بهذه

(1) تشير متلازمة أو اضطراب العش الخالي Empty Nest Syndrom إلى مشاعر الحزن والأسى والاكتئاب التي يشعر بها الآباء نتيجة للوحدة بعد مغادرة الأبناء لمنزل العائلة عندما يكبرون، بسبب الدراسة في الخارج أو العمل أو الزواج. وتعدّ الأمهات من أكثر الذين يعانون من هذه المتلازمة لشعورهن بالفراغ الكبير في حياتهن بعدما كانت مليئة بالحياة بوجود الأبناء والاعتناء بهم – المترجم

الطريقة، فهل تحب أن تغير هذه النظرة؟ وأنت بهذا السؤال تجعله يعرف أنك تعرف أفضل في حين أنه غير متأكد أو واثق من نفسه.

- استعمل كلمة افعِل بدلاً من ابدل أفضل ما عندك؛ لأن عبارة أفضل ما عندك عبارة تصويرية، ولا يعرف أي واحد منا أفضل ما عنده في أي مرحلة من مراحل حياته. يضاف إلى ذلك أن على كل واحد منا أن ينجز على أعلى مستوى في كل مجال من مجالات النشاط الإنساني. ولكنني أعتقد أن الاستمتاع بالحياة يعدّ أسمى بكثير من تقديرك بناءً على أدائك في الحياة. ويجب عدم وضع الأطفال في وضع تعتمد قيمتهم فيه على حسن أدائهم.

وبالرغم من أنه لا بأس في أن يختار الإنسان أشياء قليلة يتفوق فيها على مستوى عالٍ، إلا أن الأكثر عقلانية وصحة هو أن يحاول أشياء كثيرة، وأن يمارسها ويقوم بها، بدلاً من أن يضطر إلى الإنجاز على أعلى مستوى ممكن. إن الأطفال الذين يقنعون أنفسهم أن عليهم التفوق دائماً

سوف يتجنبون حتى مجرد المحاولة خشية الفشل. وربما يعانون أيضاً من الإحباط والقلق في محاولاتهم المستمرة لتحقيق وهم أفضل ما عندهم.

إن اعتماد التحصيل والإنجاز مؤشراً للنجاح هو في الواقع أداة ذات مستوى منخفض لتقويم الذات. إن استبدال الجودة وتحقيق الأهداف الحياتية بإجراءات الإنجاز الخارجية يتطلب الوصول إلى مستويات أعلى من ذلك بكثير. وعلاوة على ذلك، فإن معايير النجاح الخارجية سوف تُلزم طفلك طوال حياته إذا ما تعلم أن يتقدم بثقة في اتجاه أحلامه الخاصة، وتوقف عن مطاردة تعريفات الآخرين للنجاح. إن النجاح، مثلما هي السعادة والحب، شعور ينبع من داخلنا، وأنت تضيفه إلى ما تفعله بدلاً من محاولة الحصول عليه من نشاطاتك. ولذلك، علّم الأطفال الاستمتاع بالحياة والشعور بالرضا عن كل ما يقومون به. عندئذ، سوف يلازمهم النجاح، الذي أعرضه هنا، طوال حياتهم. أما البديل هو أن نجعلهم يطاردون هذا النجاح دائماً في صورة المزيد من الإنجاز والتحصيل. وبالنسبة، سوف يعانون طوال حياتهم مرضاً يدعى المزيد. وحينها، سوف يعانون من النجاح دائماً.

- خفف الضغط الناجم عن السباق للفوز في كل شيء. وبدل ذلك، علّمهم أن يفعلوا أي شيء، وألا يخافوا الفشل. وعلى الرغم من أن الحصول على علامات عالية أمر جيد، إلا أن اكتساب المعرفة أهم من ذلك بكثير. ومع أن جمع الجوائز شيء ممتع، إلا أن المشاركة

في مسابقات الحياة الرياضية المثيرة أكثر فائدة من جمع الجوائز. وقد تبين من البحوث أنّ التنافس من أجل الفوز والنجاح، والانضمام إلى فريق رياضي، أو لإرضاء بعض الحكام والحصول على الميداليات - يعرّض الأطفال إلى ضغط كبير، لدرجة عدم تحمّله. كما يتعلّم الأطفال من هذا التنافس أنّ الحصول على مكافآت خارجيّة هو ما يميّز الشّخص الناجح. وهذا شيء بعيد عن الحقيقة؛ فقد ذكرنا في الفصل الأول أنّ تحقيق الهدوء والسلام النفسي، وإدراك معنى الهدف والمهمة، والقدرة على المرح والاستمتاع بالحياة هي المواصفات الحقيقية للشخص اللامحدود، ولا يمكن اكتساب أيّ منها من المصادر الخارجيّة.

- **حاول تعليم الأطفال أنّ الحياة لا تقدّر بثمن.** إنّ الأطفال الذين يتعلّمون عبادة المال سوف يسعون فقط وراء الأشياء التي يمكن شراؤها بالمال، وهذا بالتأكيد مسار ضيق لولوج معترك الحياة. وإذا كنت لا تريد لأطفالك سلوك هذا الطريق، فعلمهم القيم الداخليّة، وشدّد على التّوهج الداخليّ الذي يشعّ من الإعجاب بشيء ما بدل السؤال عن سعره دائماً، أو سؤال الآخرين عن المبلغ الذي دفعوه ثمنه. وهؤلاء الذين درّبوا على التفكير في المال وتقويم الحياة بالنقود، نادراً ما يفكرون في أيّ شيء آخر. ومع أنّ تعليم قيمة المال أمر مفيد بكل تأكيد، إلّا أنّ ما يعادل ذلك في الأهمية هو تعليم الأطفال أنّ القيمة لا تتحدد بالنقود فقط، وإنما بمقدار الاستمتاع الذاتيّ بنشاط أو شيء ما.

- **حاول أن توجد جوّاً منفتحاً داخل عائلتك.** وهذا يتطلب أن تكون منفتحاً على النقاشات حول كلّ شيء وأيّ شيء، وأن تحاول إزالة المحرمات والممنوعات كلّها في علاقاتك مع أطفالك، وأن تتفهم ما يحبّون ويكرهون كمراهقين. وعليك، أيضاً، أن تشجعهم على الاستمتاع بشبابهم، وأن يسألوك عن أيّ شيء يزعجهم، ودع ضحكاتهم تذكرك بما كنت عليه وأنت في مثل سنهم.

من المؤكّد أنّ الجوّ المنفتح، والصادق، والخالي من الأحكام المسبقة والأفكار التّمطيّة التي غالباً ما تنغصّ صفوف العلاقات بين الوالدين والأبناء - هو المدخل الرئيس لمساعدة أطفالك ليكونوا منفتحين على الحياة ومدفوعين بحب الاستطلاع، لأن يكونوا منغلقيين وخائفين من المجهول. وعندما تجتمعون على طاولة العشاء، أو في أيّ وقت آخر، افتح مجالاً للنقاش، وبيّن لهم أنّك لا تستهين بأفكارهم لأنهم صغار، أو لأنهم لم يعيشوا

السنوات التي عشتها أنت. لذلك، لا تكبت تساؤلاتهم بتفكيرك المتزمت، وابدل جهدك لتجعلهم يعبرون عن أفكارهم، واستمع إليهم بانتباه.

- توصل إلى اتفاق مع أطفالك بأنك سوف لن ترشدهم علناً عندما يخطئون، وأنت تتوقع منهم معاملة بالمثل. لا يوجد بيننا من يحب أن يقومه شخص آخر علناً أمام الآخرين. وإذا ما انتقدنا الأطفال أو صححنا أخطاءهم أمام غيرهم، فإنهم سرعان ما يتطور لديهم خوف من الكلام حتى لا يقال عنهم أنهم أغبياء. ويعبر هذا الخوف عن نفسه عندما يرفض الأطفال تجربة أشياء جديدة، أو الدفاع عن أنفسهم. وفي الحقيقة أن الأب الذي يصحح قواعد اللغة للطفل، ويذكره باستمرار بالأخطاء الفعلية، ويذكره أمام الغرباء بأنه أخطأ في حساب ثمن شيء ما - يوجد عند الطفل نوعاً من توتر الإحجام Avoidance Tension، إضافة إلى الشعور بالاستياء والغضب. وإذا كنت تعتقد بأنك تفعل ذلك لصالح الطفل، فذكره بخطئه بلطف حتى لا يشعر بالحرج أمام الآخرين.

ويجب الحذر الشديد في هذا السياق لأن أي إنسان يشعر أنه يخضع إلى المراقبة الدائمة، ويعرف أنه سيوبّخ، سوف يفقد احترامه للشخص الذي يوبّخه، وسوف ينسحب في نهاية المطاف من التواصل معه. لا يوجد إنسان يحب أن يصححه شخص آخر علناً أمام الآخرين؛ لذا عليك أن تبقي هذه العبارة في الذاكرة، ولا تفعل ذلك معتقداً أنك تعرف ما الأفضل للطفل. وبدلاً من التصحيح والتوبيخ علانية، كن صديقاً لهم، وإذا كنت تعتقد أن عليك تقويمهم، فافعل ذلك على انفراد. وبالطبع، عليك أن تصرّ على معاملتك بالمثل.

- كن معزّزاً للسلوك الإيجابي لا السلبي. فاجئهم وهم يتصرفون بصورة صحيحة، واثن على السلوك الإيجابي عندما يبدر منهم، ولا تحاول أن تتصيدهم وهم يقومون بسلوك غير مرغوب. والمعادلة هنا بسيطة وهي: التعزيز الإيجابي يساعد الأطفال على تقبل التغيير، والتعزيز السلبي يعلم الأطفال الخوف من التغيير.

ولذلك، فإن الأطفال الخائفين والمتشككين الذين يعرفون أن هناك من يترصدهم عند قيامهم بسلوك غير صحيح سوف لن يخيبوا ظنك، وسوف يفعلون الأشياء التي تلفت انتباهك إذا كان هذا ما تعززه لديهم. وبناء على ذلك، حاول التخلص من شخصية «أجل، لقد أمسكتك وأنت تفعل شيئاً غير صحيح».

• استخدم السرد القصصي مع أطفالك. اروي لهم قصة حتى تصل الموقف الذي يواجهه البطل الخطر فيه، واسمح لهم تخيل النهاية، واسألهم: لماذا اختار البطل هذا الطريق الصعب. أعط الأطفال فرصة المشاركة في القصص الخيالية، وتصور أنفسهم مغامرين ويرحبون بالتغيير، لأن السرد القصصي يثير خيال الأطفال. ولهذا، فإن الأطفال الصغار يحبون المشاركة في قصة جديدة. ويمكنك أيضاً أن تلعب معهم لعبة جديدة، كأن تقول لهم: أنا صديق جديد؛ أسألوني أسئلة لتعرفوا من أنا، وما الذي أحب القيام به.

طبق عملياً ما هو مناسب للأطفال؛ فأنت تريد أن يكونوا مبدعين، وأن يستكشفوا العالم، وأن ينظروا إلى كل يوم جديد على أنه معجزة. كما أنك تريد منهم تقبل التغيير، والإقدام على المخاطر، بدلاً من أن يعيشوا حياة خاملة مملة. وأنا على ثقة أن بمقدورك أن تضيف إلى المقترحات التي أوردتها في هذا الفصل قائمة خاصة بك لا تقدر بثمن، وتكون لها فوائد مماثلة لفوائد مقترحاتي. وقد لخص الكاتب والفيلسوف الألماني يوهان غوته (1749 – 1832) فكرة هذا الفصل في مساعدة أطفالك على تقبل التغيير واستكشاف المجهول، في قوله: «إذا عاملت الناس كما هم عليه، فإنهم سيظلون على ما هم عليه». أما إذا عاملتهم كما لو يجب أن يكونوا عليه، فإنك تساعدك ليصبحوا على ما هم قادرون أن يكونوا عليه.

ولذلك، عامل الأطفال كما لو أنهم قد حققوا عظمتهم أصلاً، وكما لو كانوا أفراداً غير محدودين يرحبون بالتغيير ولا يخافون من المجهول. عاملهم هكذا دائماً، وسوف يصبحون فعلياً ما حلموا أن يكونوا عليه.

